خِطابٌ إلى المُعَلِّمِ أوريجينوس

تأليفُ أبينا الجَليلِ في القِدِّيسين غريغوريوس العَجائِبي

أسقفِ قَيصريَّة الجَديدة

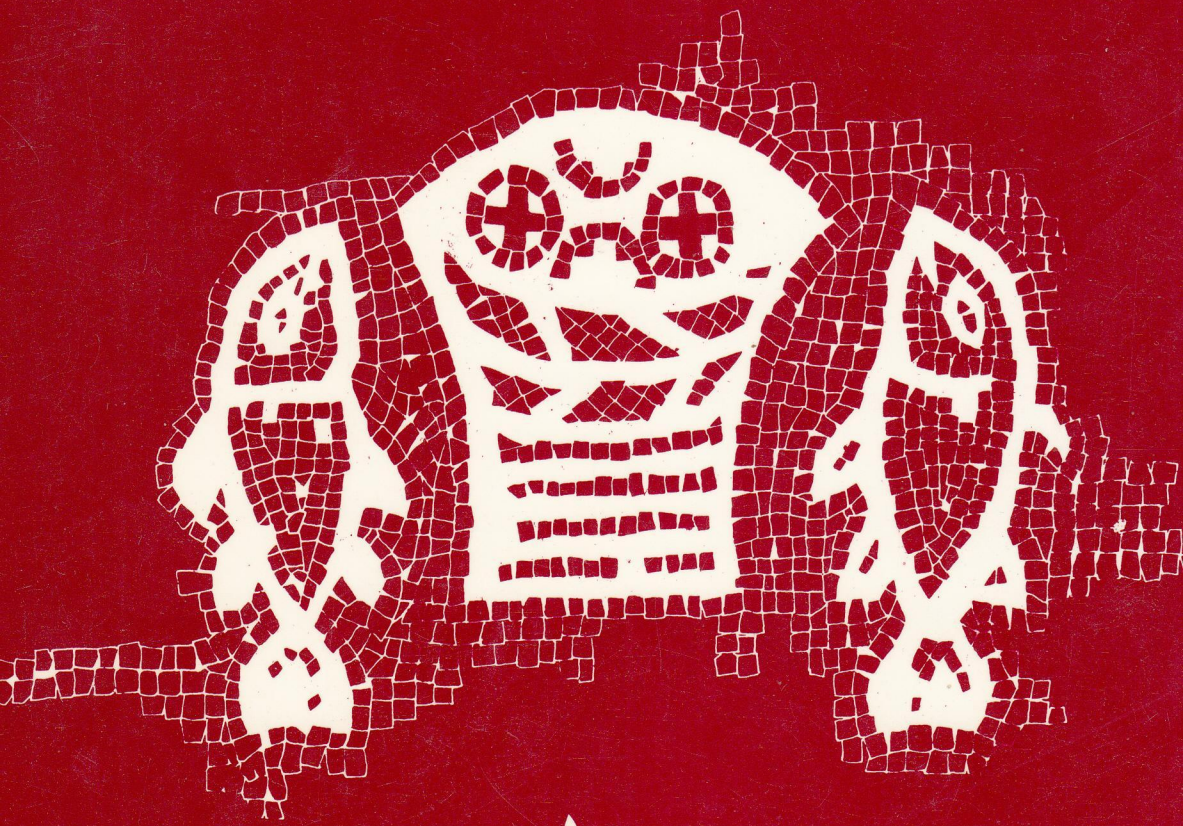

١٠

آباء الكنيسَة

خِطابٌ إلى المُعلِّمِ أوريجينوس

تأليفُ أبينا الجَليلِ في القِدِّيسين غريغوريوس العَجائِبي

أسقفِ قَيصريَّة الجَديدة

نَقَلَه إلى اللُّغَةِ العَرَبيَّة

مكاريوس جَبُّور و ناتاشا يازجي

مَنشورات النّور

٢٠٠٠

إهداء

أُهدي هذا الكِتابَ الصَّغَيرَ بِالحَجمِ والكَبيرَ بِالمَضمونِ والمُحتوى، إلى روحِ سيِّدي وأَبـــتِ العَظيم المُثلَّث الرّحمة المتروبوليت حبيب باشا راعي أبرشيَّةِ بيروت وجُبيل وتوابعهما.

وإلى جميعِ مَنْ كانَ لَهم الفَضلُ في تَربيَتي وتَعليمي وخاصَّة أبتِ المرحوم أدريانوس شكوّر، الذي كانَ له الفضلُ الأكبر في زرعِ حبِّ الآباءِ في قَلبي وعَقلي.

وإلى كَنيستي الأُرثوذكسيَّة حافِظةِ الإيمانِ ووَريثةِ الآباء، التي أتمنَّى لَـــها العِـــزَّ والنَّصـــرَ والقداسةَ، وأُهديه خُصوصاً إلى سيِّدي وصديقي العَزيز صاحب السيّادة المُطران باسيليوس نصّور المُوقَّر راعي أبرشيَّة طرطوس وصافيتا.

اعتَمَدنا في تَرجَمَتِنا هذا الكِتاب على الأُسلوبِ التَّالي:

١- أَخذنا النَّصَّ الفَرَنسيَّ*، وقُمنا بِتَرجَمَتِه حَرفيًّا.

٢- أَخَذنا النَّصَّ الإيطاليَّ** وقُمنا بِتَرجَمَتِه حَرفيًّا.

٣- عُدنا بِكُلٍّ مِنَ التَّرجَمَتينِ إلى الأَصلِ اليونانيّ الذي نَشَره هنري كروزل (راجع الحاشية *)، وقارنَّاهما مَعَه.

٤- قارنَّا كِلا التَّرجَمَتين فيما بَينَهما.

٥- صِغنا نَصًّا أَوَّليًّا انطَلَقَ مِنَ النَّصوصِ الثَّلاثة.

٦- صِغنا النَّصَّ الأَخيرَ بِأسلوبٍ عَربيٍّ، سَعينا أَنْ يَتَحَرَّرَ مِنْ كَثرَةِ الضَّمائِرِ وأَدواتِ الوَصل وأَحرُفِ النَّصب، بِدُونَ التَّصَرُّفُ في النَّصِّ إلاَّ في جُملَةٍ واحِدَة، في سَبيلِ إيضاحِ المَعنى، وقدْ أَشرنا إلى ذلِكَ في النَّصّ.

٧- اتَّبعنا في تَقسيمِ النَّصِ وتَرقيمِه التَّرجَمَةَ الإيطاليَّة، بِسَبَبِ قُربِها مِنْ روحِ لُغَتِنا العَرَبيَّة.

٨- اعتَمَدنا في وَضعِ الحواشي على التَّرجَمَتين، وأَضفنا حواشي أُخرى عندَما وَجَدنا حاجةً إلى ذلِك.

٩- خَرَجنا في المُقَدَّمَة كُليًّا عنْ مُقَدِّمَةِ التَّرجَمَتين، مُضيفينَ ومُنَقِّصين، وأَعطينا وِجهَةَ نَظَرِنا لِلنَّص.

---

* Thaumaturge Grégoire Le, **Remerciement à Origène suivi de La Lettre d'Origène à Grégoire**, Sources Chrétiennes 148, Les éditions du Cerf, Paris, 1969. Texte Grec, introduction et notes par Henri Crouzel.

** Taumaturgo Gregorio Il, **Discorso a Origene una pagina di pedagogia cristiana**, Collana di testi patristici 40, Città Nuova editrice, Roma, 1983. Traduzione introduzione e note a cura di Eugenio Marotta.

١٠- اخترنا عُنواناً لا يَختَلِفُ كَثيراً عمَّا أعطَته التَّرجمتان، رأيناه أكثرَ مُلائمةً لِواقِعِ النَّصِّ ولِلُغَتِنا العَرَبيَّة.

نَرجو أنْ نَكونَ قَدْ وُفِّقنا في إتمامِ هذا العَملِ بِأمانَةٍ ورصانَةٍ وبِحَسبِ الأُصول المَنهَجيَّة، وأنْ يَستَفيدَ مِنه كُلُّ قارِئ.

نَرفَعُ أسمى آياتِ الشُّكرِ والعِرفانِ بِالجَميل، معَ المَحبَّةِ والاحترامِ والتَّقديرِ إلى سيادَةِ أبينا المُطران غريغوريوس حدَّاد الذي تَكلَّفَ عَناءَ ومَشقَّةَ تَنقيحِ لُغتِه، أدامَ اللهُ سيادَتَه وحَفِظَه بِالصِّحةِ والعافية، ومَنَحه طول العُمر.

مُقدِّمَة

حَياةُ القدِّيسِ غريغوريوس العَجائِبيّ صاحِب الكِتاب
ونَظرَةٌ عامَّة عَنْ مُحتوى ولاهوتِ الكِتاب

تُعيِّدُ الكَنيسَةُ الشَّرقِيَّةُ البيزَنطِيَّة لِلقدِّيسِ غُريغوريوس العَجائِبيّ أُسقُفِ قَيصَرِيَّة، في السَّابِعَ عَشر من شَهرِ تِشرينَ الثّاني. وله في كِتابِ صَلواتِها الطَّقسيَّة عِدَّةُ أَناشيدٍ في غايَةِ الرَّوعَةِ والجَمال، يَتَكَلَّمُ مُعظَمُها عَنْ مواهِبِ حِكمَتِه الغَزيرة وعَظَمةِ عَجائِبه: **"افْرَحْ يا جَمالَ رُؤَساءِ الكَهَنة، يا مَقاماً لِلفَضائِلِ ساطِعاً بالنُّور. ميزانَ الكَنيسَةِ وقانونَ الكَهَنوت، النَّهرَ المَملوءَ مِنَ المياهِ الإلَهيَّة، التي تَرتَوي مِنها البَسيطَةُ بأَسرِها، لِخِصبِ النَّفسِ الخَلاصيّ، ويَرحَضُ قَذَرَ البِدَع. أَيُّها الإنسانُ السَّماويُّ والمَلاكُ الأَرضيّ، الفَمُ اللاَّهِجُ بالشَّريعَةِ الإلَهيَّة، غُريغوريوس وارِثُ الإله، الواهِبُ العالَمَ الرَّحمَةَ العُظمى"**[i].

وُلِدَ غُريغوريوس المَدعوّ بالعَجائِبيّ في قَيصريَّةَ الجَديدة[ii]، عاصِمةِ البُنطُس، حَولَ سَنة ٢١٣. وكانَ الابنَ البِكرَ لِعائِلَةٍ وَثَنيَّةٍ مَيسورَةٍ جِدّاً ومَعروفَةٍ في قَيصريَّة، مُؤَلَّفَةٍ مِنْ أَبٍ وأُمٍّ وثَلاثَةِ أَولاد[iii]. أَمَّا اسمُه الأَصليُّ فَهو ثيوذوروس، وقدْ غَيَّرَه يَومَ عِماده خِلالَ فَترَةٍ تَتَلمُذِه على يَدِ أوريجينوس في قَيصيريَّةِ فِلسطين. تُوفِيَ والِدُه وهو في الرَّابعَةَ عَشرة مِنْ عُمرِه[iv]، فَتَولَّتْ والِدَتُه مهمَّةَ تَربيةِ الأَولاد[v]، واهتَمَّتْ كَثيراً في المُحافَظَةِ على مُستوى العائِلَةِ الاجتِماعيّ. بَعدَما أَنهى الأَخوان دِراسَةَ القَواعِد، تَوجَّها لِدِراسةِ عِلمِ البَلاغَة لِفَترَةٍ دامَتْ ثَلاثَ سَنوات. وكانا يَتَردَّدانِ على أُستاذٍ لِلُّغَةِ اللاَّتينيَّة خَبيرٍ بِعِلمِ القانُون[vi]، فأَقنَعَهما بالتَّمَرُّسِ بِهذه المادَّة، ولَقَّنَهُما بِنَفسِه عَناصِرَها الأُولى. تَرَدَّدَ الشَّابَّانِ في أَخْذِ القَرارِ حولَ مَوضوعِ

---

[i] البروصومِيَة الثّانية من إينوس صلاة السَّحر.
كِتابُ الميناون، الجزءُ الأَوَّل، دارُ الكَلِمة، المَنشوراتُ الأُرثوذكسيَّة، دمشق، ١٩٥٧، صفحة ٢٤٥.

[ii] مدينةٌ في آسيا الصُّغرى تَقَعُ على الضِّفةِ اليُمنى لِليكو، تُعرَفُ حالِيّاً بـ نيكسار.

[iii] غريغوريوس، وأثيناذوروس الأَخ الأصغر، وأُخت قدْ تَزَوَّجتْ منْ رَجُلٍ قانون.

[iv] يَذكُرُ غريغوريوس وفاةَ أبيه في المَقطع رقم ٤٩ من النَّص.

[v] يَذكُرُ أيضاً عِنايَةَ أُمِّه بهم في المَقطع ٥٦ من النَّص.

[vi] يَذكُرُ أُستاذَ البَلاغَةِ هذا في المَقطعَين ٥٦ و ٥٨ من النَّص.

ذهَابهما إلى روما أو إلى مَدينَةٍ أُخرى لإنهاءِ دراسَةِ التَّشريعِ الرُّوماني[vii]، فاختارا بيريتو أي بيروت[viii]. وتَصادَفَ أَنْ عُيِّنَ صِهرُ غريغوريوس مُستشاراً لِحاكِمِ فِلسطين، فَانْطَلَقَ وَحدَه أوّلاً، ولَكِنَّه ما لَبِثَ أَنْ شَعَرَ بالحَنينِ إلى زَوجَتِه الشَّابَة وطَلَبَ أَنْ تُوافيه حيثُ كان[ix]. وأَلَحَّ على أَخَويهَا بالمَجيءِ مَعَها واصْطِحابِها كي لا تَشعُرَ بمَشقَّةِ السَّفَرِ وَحدَها، فَلَبَّيا رَغبَتَه[x]. وكانتِ المُناسَبَةُ أَنْ يَلتَحِقا بمَدرَسَةِ بيروتَ لِدِراسَةِ الحُقوق. ولَمْ تكنْ بيروتُ بَعيدةً طَبعاً عن قيصريَّة فِلَسطين مَقَرِّ أُختِهما الجَديد.

خِلالَ فَترَةِ مُكوثِهما في قَيصريَّة، تَعَرَّفا على أُريجينوس[xi] الذي قَلَبَ حياتَهُما رأساً على عَقِب وغَيَّرَ كُلَّ مشاريعِهما[xii]، فأهمَلا دِراسَةَ الحُقوقِ وتَوجَّها نحوَ الفلسَفة، وأَقاما في قَيصريَّة.

كانَ غريغوريوس وأَخوه أثيناذورس في عِدادِ التَّلاميذِ الأَوائِلِ الذينَ تَتَلمذوا على يدِ أوريجينوس من بعدِ وصولِه إلى قيصريَّة[xiii]. وقد واظَبا على ذلكَ مُدَّةَ خَمسِ سنواتٍ بدونِ انقِطاع، نالا خِلالَها سِرَّ العِمادِ المُقَدَّس، وربَّما من أوريجينوس نفسِه.

[vii] راجِع المَقطَع ٦٤ من النَّص.

[viii] كانَتْ بيروتُ مُستَعمَرَةً رومانيَّةً مُزدهِرَةً على عَهدِ أُغُسطُس، وخُصوصاً في القرنين الثَّالِثِ والرَّابِع، وكانتْ كما يَعلَمُ الجَميع، مركَزَ دِراسَةِ التَّشريعِ الرُّوماني. أَمَّا التَّشريعُ فَبقيَ يُدَرَّسُ باللُّغةِ اللاّتينيَّةِ حتَّى نِهايةِ القَرنِ الرَّابع.

[ix] راجِعْ المَقطع ٦٥ من النَّص.

[x] راجِع المَقاطِع ٦٦-٦٩ منَ النَّص.

[xi] لا يُعرَفُ كيفَ تَمَّ التَّعارفُ معَ أُوريجينوس. معَ العِلمِ أنَّ هذا الأخير كانَ قدْ وَصَلَ إلى قيصريَّةِ فِلَسطين حوالَي سنة ٢٣٢ إثرَ خِلافِه معَ أُسقُفِه ديمِتريوس.

يُلَمِّحُ غريغوريوس على خروجِ أوريجينوس من مصر في المَقطع ٦٣ من النَّص.

أَمَّا سَبَبُ الخِلافِ فكانَ على ما يَبدو على النَّحوِ التَّالي: كانَ ديمِتريوس أَسقفَ أوريجينوس والمَسؤولَ المُباشرَ عنه، وكانَ أوريجينوس مُديرَ مدرَسَةِ التَّعليمِ المَسيحي في الإسكَندَريَّة، فَأَرسَلَه سنة ٢٣٠ إلى اليونان لِمهامَّ كَنَسيَّة. خلالَ السَّفَر، (لا نَعرِفُ ذهاباً أو إيَّاباً) مَرَّ أوريجينوس في قَيصريَّةِ فِلسطين، فَرَقَّاه إلى دَرَجةِ الكَهَنوت ثيوكتيستوس أُسقُفُ قَيصريَّة والكسَندروس أسقفُ أورشَليم.

يُذكَرُ أنَّ ديمِتريوس كانَ يَحفظُ لأوريجينوس بعضَ الغَيظ بسببِ بَعضِ أفكارِه الجَريئة، خُصوصاً في المواضيعِ العَقائِديَّة، وبسببِ روحِ الاستِقلاليَّة. فَطَعَنَ بصحَّةِ الرِّسامة، مُستَنِداً مُنذِرٌ بعَدمِ استِحقاقِ أوريجينوس لها، لأنَّه خصا نَفسَه. لِذلك أَعلَنَ ديمِتريوس الدَّعوة سنة ٢٣١ لِعقدِ مَجمعَين مُتتالِيَين، وكانَ المَجمعُ الأوَّلُ عُمومِيّاً حَضَرَه الأساقِفةُ والكَهنة، أَمَّا الثَّاني فكانَ للأساقِفةِ فقط. أَلغى المَجمعُ الأوَّلُ أعمالَه مُجَرِّداً إيَّاه من إدارَةِ مدرَسةِ التَّعليم المَسيحي ومُبعِداً إيَّاه عن الإسكَندريَّة. أَمَّا المجمعُ الثَّاني فقد أَنكرَ صِحَّةَ رِسامَته. صادَقَت كنيسةُ روما على قراراتِ المَجمَعين، بَينما لَمْ تُصادق كنائِسُ: فلسطين، فينيقية، العربيَّة، أكائية.

* يُكرِّسُ أوسابيوس القَيصريّ الجُزءَ الأوَّل من كِتابِه السَّادس "تاريخ الكنيسة"، لِلكلامِ عن أحداثِ حياةِ أوريجينوس.

[xii] راجِع المقاطِع ٧٣-٧٨ وما بعدَها.

[xiii] إذا حَسَبنا تاريخَ ميلاد غريغوريوس في سنة ٢١٣، وتاريخَ مجيءِ أوريجينوس إلى قيصريَّة حوالي سنة ٢٣٢، يكونُ عمرُ غريغوريوس عِندَ لِقائِه المُعلِّم الكَبير حوالي ١٩ سنة.

سَبَقَ لِغريغوريوس أن اتَّصلَ بالمَسيحيَّةِ على ما يَبدو منْ قَولِه في المَقطَعَين ٤٩ و٥٠، أي بعُمرِ الرَّابعةَ عَشرَة، فَرُبَّما كانتْ أُمُّه مَسيحيَّة، أو كانَ ارتِدادُه داخِلِيّاً[xiv].

وفي مُنتَصَفِ سنة ٢٣٨، تركَ غريغوريوس وأخوه مدرَسَة قيصريَّة عائِدَينِ إلى الوَطن، بدعوةٍ من الوالِدَة، كي يَهتَمَّا بإدارَةِ أملاكِ العائِلَة[xv]. وقد أَلقى غريغوريوس باسمِه واسمِ أخيه خِطابَ الوداعِ والشُّكر بحضور أوريجينوس وحَشدٍ كَبيرٍ منَ الحُضور.

في البُنطُس، مارسَ غريغوريوس المُحاماة بضعَ سَنوات، لكِنَّه ما لَبِثَ أَنْ تَرَكَ العالَم مُنتَحِلاً الحَياةَ النُّسكيَّةَ والتَّأمُّل في الكِتابِ المُقدَّس[xvi]. وما لَبِثَ أنْ فاحَ عِطرُ سيرَتِه في أَصْقاعِ مُدُنِ آسيا الصُّغرى. فَرَسَمَه فيديموس متروبوليتُ مُقاطَعةِ البُنطسُ وأُسقفُ أماسيا، أُسقُفاً على قَيصريَّة الجَديدة، وهو آنَذاكَ لَمْ يَكُنْ قدْ بَلَغَ بَعدُ الثَّلاثينَ مِنْ عُمُرِه[xvii].

كانتْ عِبادَةُ الأَوثانِ مُنتَشِرَةً في قَيصريَّة الجَديدة، إلاَّ أَنَّ المَدينةَ لَمْ تَثْبُتْ أَمامَ وداعَةِ وعِلمِ الأُسقُفِ الشَّاب، فاهتَدَى على يَدَيه كَثيرونَ، ونالَ احترامَ وتَقديرَ كُلِّ الشَّعب. وكانَ

[xiv] لا يَظُنُّ كروزل أنَّ أُمَّ غريغوريوس كانتْ مَسيحيَّة، ويَستَنِدُ في ظَنِّه على قولِ غريغوريوس: " وحدثُ نفسي مُرغَماً من غيرِ أن أُريد، أُمضي وقتاً طويلاً بجانبِ الكَلِمةِ الخلاصيّ...".

على كُلِّ حال، أُنظُر الحاشية رقم ٢٢ التَّابعة لِلمقطع ٥٠ من النَّص.

[xv] يَذكُرُ كِتابُ السِّنكسار أنَّ: "القَيصر مكسمينُس أثارَ الاضطِهادَ على الكَنيسة. وبَثَّ حاكِمُ فِلسطينَ العيونَ على المُعلِّم أورجانس لِيُمسِكَه ويُنكِّلَ به. فتوارى ذلكَ ... عنِ الأبصار وسافرَ إلى الإسكندَريَّة. فلَحقَ به هو وأخوه إلى هُناك، حيثُ تعرَّفا بالفيلسوفِ ذيونيسيوس وسيما تعاليمَه... ولَمَّا هدأَتْ زوبَعةُ الاضطِهاد عادَ أورجانس إلى قيصريَّة مع تلميذَيه... لكِنَّهُما ما لَبِثا أن اضطُرَّا إلى العَودةِ إلى بلادِ البُنطُس...".

عَسَّاف المطران مخائيل، **كتابُ السِّنكسار المُشتَمِل على سِيَرِ القدّيسين**، الجزءُ الأوَّل، الطَّبعة الرَّابعة، منشوراتُ المكتَبة البولسيَّة، جونية، ١٩٨٨، صفحة ٢٦١.

يَتوافَقُ هذا الكَلامُ معَ ما يقولُه أوسابيوس المُؤَرِّخ في كِتابِه "تاريخ الكنيسة" الجزء السَّادس، ٣٠، إلاَّ أنَّ الإمبراطور كانَ آنذاك غورديانوس الثَّاني الذي تَولَّى الحُكم بحسبِ أوسابيوس سنة في تمّوز ٢٣٨.

[xvi] إنَّ أهمَّ مَرجِعٍ عن حَياةِ غريغوريوس بعدَ تركِه مدرَسة أوريجينوس، هو كتابُ **الحياة اليونانيَّة** المَنسوب لِلقدّيسِ غريغوريوس النيصي. P.G. 46, 893-958.

[xvii] "فَعلِمَ به فيدمُس أسقفُ أماسيا، فَرَغِبَ فيه وأرادَه أُسقفاً على مَدينةِ قيصريَّة وطَنِه... فارتاعَ غُريغوريوس لَمَّا علِمَ بعَزمِ فيدمُس وهَربَ وتَوغَّلَ في البَرِّيَّة. إلاَّ أنَّ رُسلَ الأُسقف والقِدِّيس أدركوه وأَخذوا يُقنعونَه، مُصَوِّرينَ له قيمةَ تِلكَ التَّضحية... أمَّا غريغوريوس فبَقيَ مَصرّاً على عَزمِه، خائِفاً مِنْ عِظمِ مسؤوليَّةِ الأسقُفيَّة، مُقتنِعاً في ذاتِه... أنَّه لا يَصلُحُ لِمنصبٍ سامٍ كَهذا في بيعةِ الله... ولَمَّا رأى فيدمُس أنَّ الوسائِلَ البَشريَّة لَمْ تُنِل رَغبَتَه، عمدَ إلى الصَّلاة والتَّضرُّع... فلمَّا كانَ غريغوريوس غارِقاً في بَحرِ تأمُّلاتِه... سمِعَ صوتاً يقولُ له: أذعِنْ لإرادَةِ رئيسِكِ وأُسقُفِكَ فيدمُس لأنَّها إرادَةُ الله. فقامَ لِوقتِه... حتَّى أتى مدينةَ أماسيا. فحَيّا بوداعةٍ أمامَ الأُسقفِ القدّيس فيدمُس، ووَضعَ يدَيه بينَ يديه زِمامَ أمرِه...".

عَسَّاف المطران مخائيل، **كتابُ السِّنكسار المُشتَمِل على سِيَرِ القدّيسين**، الجزءُ الأوَّل، الطَّبعة الرَّابعة، منشوراتُ المكتَبة البولسيَّة، جونية، ١٩٨٨، صفحة ٢٦١.

في سَنة ٢٦٤، أخذَ مَعَ أَخيه أثيناذوروس دَوراً رائِداً في أَوَّل مَجمعٍ لِكنيسةِ إنطاكيَة[xxii]. وعُقِدَ أيضاً مَجمعٌ ثانٍ[xxiii] في نَفسِ السَّنة، ويَبدو أنَّهما لَمْ يَشتركا فيه، رُبَّما لأَنَّ غريغوريوس كانَ مَريضاً، وبالفِعلِ لَمْ يُعمِّر، بلْ تُوفيَّ سنة ٢٧٠. وقَبلَ وفاتِه زارَ غريغوريوس أَبرشيَّته وتَشكَّرَ الرَّبَّ إذ لَمْ يَبقَ فيها سِوى سبعَةَ عَشرَ وَثَنيّاً، بَينَما كانَ فيها عندَ وصولِه إليها سَبعَةَ عَشرَ مَسيحيّاً[xxiv]. ودُفِنَ في الكَنيسَةِ التي بَناها.

لَقَّبَه الآباءُ الكَبادوكيّون بِـ "الكَبير"، وفيما بَعدُ لَقَّبَته الأَجيالُ المَسيحيَّة بِـ "الصَّانِع العَجائِب". فَبِشفاعاتِه أَيُّها المَسيحُ الإِلَهُ خَلِّصْ نُفوسَنا.

[xxii] عُقِدَ المَجمَعُ لِلنَّظرِ في تعاليم بولس السَّميساطي أسقف إنطاكيَة بين السَّنوات ٢٦٠-٢٦٨، وقد وقعَ في الهرطَقةِ المونارخيَّة، وتاهَ في عِيشَةٍ ماديَّةٍ غيرِ لائِقة.

[xxiii] دَرسَ هذا المَجمعُ أيضاً مُشكِلَةَ هرطَقةِ بولس السَّميساطي.

[xxiv] راجِع P.G. 46, 953D.

أَهَمُّ المَراجِعِ لِمَعرِفةِ سيرَةِ حياتِه

نَعرِفُ أَوَّلاً مِن خِلالِ الحَديثِ المُوَجَّهِ لأوريجنيوس بعضَ الأَحداثِ عن طُفولَة غريغوريوس، وهي ذاتُ طابِعٍ مسيحيٍّ بَحت.

لا يَوجَدُ في لُغَتِنا العَربيَّةِ مَراجِعُ وافية تَتَكلَّمُ عن هذا القِدِّيس، رُبَّما نَلتَقي باسمِه في بَعضِ الكُتبِ التي تَتَناوَلُ تاريخَ الكَنيسة عُموماً، ولكِنَّها جَميعاً لا تُعطينا أيَّ تَفصيلاتٍ حولَ حياتِه.

تَبقى أَمامَنا الكُتُبُ الطَّقسيَّةُ المُستَعمَلَة في كَنائِسنا البيزنطيَّة، ولا نَعتَقِدُ أَنَّها تَفي بالغَرَض:

١- عَسَّاف المطران مخائيل، **كتابُ السَّنكسار المُشتَمِل على سِيَرِ القدّيسين**، الجزءُ الأوَّل، الطَّبعة الرَّابعة، منشوراتُ المكتَبة البولسيَّة، جونية، ١٩٨٨، صفحة ٢٦١.

٢- **كِتابُ الميناون**، الجزءُ الأَوَّل، دارُ الكَلِمة، المَنشوراتُ الأُرثوذكسيَّة، دمشق، ١٩٥٧، صفحة ٢٤٣-٢٤٦.

أَمَّا دِراسَة مُفصَّلَة نسبيًّا، فلا نَجدُها إلاَّ عِند:

١- رُستُم الدَّكتور أَسد، **آباءُ الكَنيسة**، الطَّبعَة الثَّانية، مَنشوراتُ المَكتَبةِ البولسيَّة، لُبنان، ١٩٩٠، الفَصل التَّاسع، صفحة ١٤١-١٤٤.

تَبقَى أَمامَنا المَراجِعُ القَديمةُ وتُصنَّفُ على النَّحوِ التَّالي:

٢- أوسابيوس المُؤرِّخ، **تاريخ الكَنيسة**، الجزء السَّادس: ٣٠؛ الجزءُ السَّابع: ١٤؛ ٢٨. نَجدُه طبعاً في سِلسلة Patrologie Grecque الشَّهيرة. وقدْ تُرجِمَ إلى اللُّغاتِ الغَربيَّة كالفَرنسيَّةِ والإنجليزيَّة والإيطاليَّة وغيرِها. ونَعرِفُ منْ خلالِه معلوماتٍ أيضاً نِسبيَّة عن بدايةِ حياتِه مع أوريجينوس والحَقبة التي تَلي ذلك.

٣- إيرونيموس القِدّيس، **De Viris Illustribus 56**، P.L. 23: 667-669.

٤- غريغوريوس النّيصي القدِّيس، **La vita Greca**، P.G. 46: 893-958.

٥- فوتيوس القدِّيس، **Bibliotheca**، P.G. 103-104.

بعضُ الدِّراساتِ حولَ غريغوريوس وكِتابه

نوردُ بعضَ المراجعِ والدِّراساتِ الحَديثة في اللُّغات الغَربيَّة، ونَنقُلُها عن مُقدِّمـــةِ التَّرجمـــة الفَرنسيَّة (لِهنري كروزل)، حسبَ التَّسَلسلُ الزَّمني:

1- Brinkmann A., **Gregors des Thaumaturgen Panegyricus auf Origenes**, Rheinisches Museum für Philologie (Frankfurt a. M.), Neue Folge 56, 1901, p. 55-76.

2- Dräseke J., **Der Brief des Origenes an Gregorios von Neocäsarea**, édité à la fois dans Jahrücher für protestantische Theologie, 7, 1881, p. 102-126; et en appendice à J. Dräseke, **Der Brief an Diognetos**, Leipzig, 1881, p. 142-166.

3- Nautin P., **Lettres et écrivains chrétiens des II ème et III ème siècles**, Patristica II, Paris, 1961.

4- Crouzel H., **Théologie de l'image de Dieu chez Origène**, Théologie 34, Paris, 1956. Désigné par image.

5- Crouzel H., **Origène et la connaissance mystique**, Museum Lessianum 56, Paris-Bruges, 1961. Désigné par Connaissance.

6- Crouzel H., **Origène et la philosophie**, Théologie 52, Paris, 1962. Désigné par Philosophie.

7- Crouzel H., **Virginité et Mariage selon Origène**, Museum Lessianum 58, Paris-Bruges, 1963. Désigné par Virginité.

نَصُّ الخِطاب في المَخطوطات

يُقرُّ الدَّارسِون بِضياعِ المَخطوطَةِ الأَصليَّة، ومعَ ذلِكَ فالنَّصُ موجودٌ في عِدَّةِ مَخطوطـــاتٍ مُوزَّعةٍ زمَنياً بينَ القَرنِ الثَّالِث عَشر والقَرنِ السَّادِس عَشر. نَنقُلُها أيضاً مِثلما جـــاءَتْ في مُقدِّمة التَّرجمةِ الفرنسيَّة:

1- Codex Vaticanus gr. 386, fol. 1-12 (A).

يَعودُ هذا المَخطوطُ إلى القَرنِ الثَّالِث عَشر، ويُعتَبَرُ الأَقدم، وهو مَصدرُ جميعِ المَخطوطـاتِ الأُخرى.

2- Codex Parisinus suppl. gr. 616, fol. 2-18 (P).

يَعودُ إلى سنَة ١٣٣٩. وهو نسخةٌ عن المخطوطة الفاتيكانيَّة.

3- Codex Venetus Marcianus gr. 44, fol. 1-13 (V).

يعودُ إلى القَرنِ الخامِس عَشر. وهو نَسخةٌ عن المَخطوطة الباريسيَّة.

4- Codex Palatino-Vaticanus gr. 309, fol. 1-18.

يَعودُ إلى سنةِ ١٥٤٥. وهو نَسخةٌ عن المَخطوطةِ الفينيَّة.

5- Codex Oxoniensis Novi Collegii gr. 146, fol 1-13.

يَعودُ إلى القَرنِ السَّادِس عَشر. وهو نَسخةٌ عن المَخطوطةِ الفينيَّة.

6- Codex Venetus Marcianus gr. 45, 1-5.

يَعودُ إلى القَرنِ الرَّابِع عَشر. وهو نَسخةٌ عن المَخطوطةِ الفاتيكانيَّة. إلاَّ أنَّه مُتضرِّرٌ في أوَّله، ولا يحتوي الجزء الثَّاني منَ النَّص.

اللُّغاتُ التي تُرجِمَ إليها وصَدَر بها:

1- Margraf J., in: **Bibliothek der Kirchenväter**, 159, 1875.

2- Bourier H., in: **Bibliothek der Kirchenväter**, 31, Kempten und Muenchen, 1911.

3- Salmond S. D. F., **The works of Gregory Thaumaturgus, Dionysius of Alexandria and Archelaus**, in: Ante Nicene Christian Library, vol. XX, 1871, pp. 36-80.

4- Metcalfe W., **Origen The Teacher**, Society for promoting Christian knowledge; Early Church classics, London and New York.

5- Metcalfe W., **Address to Origen**, Society for promoting Christian knowledge; Early Church classics, London and New York, 1920.

علاوَةً على خِطابِ مَديحِ أوريجينوس الوَداعيّ هذا، حَفِظتْ لنا الأجيالُ المَسيحيَّة الأعمال التَّالية:

١- بَحثٌ مُوَجَّهٌ بِشكلِ رِسالةٍ إلى ثيوبومبوس حولَ تألُّمِ وعَدَمِ تألُّمِ الله. كَتَبَه بعدَ فَترةٍ وَجيزة من خِطاب أوريجينوس. وثيوبومبوس هذا، هو وثنيٌّ اهتَدى إلى المسيحيَّة، وكانَ يَعتَقِدُ أنَّ الله جَالِسٌ على عرشِه يَنعَمُ بِسلامٍ ولا يُهمُّه أمرُ العالَم. حُفِظَتِ الرِّسالةُ في النَّصِ السُريانيِّ فقط، وقَدْ نُشِرت ودُرِسَتْ عِدَّةَ مَرَّات:

- Lagarde de P., Analecta Syriaca, Lipsiae, 1858, pp. 46ss.
- Martin in Pitra P., Analecta Sacra IV, Prisiia, 1883, pp. 103ss. (avec une traduction latine pp. 363ss.).
- Crouzel H., **La passion de l'Impassible**, L'homme devant Dieu, tome I, Paris, 1963, pp. 269-279.

٢- **الرِّسالةُ القانونيَّة**. وهي عِبارةٌ عن جوابٍ على استِفسارِ أحدِ الأساقِفة حول كَيفيَّةِ التَّعامُلِ معَ التَّائِبين. وَضعَها غريغوريوس في خريف سنة ٢٥٤. كَتَبَ عَنها الدَّكتور رُستم: "وَعَبَرَ (داقيوس) القوطُ الدانوب ولم يَتمَكَّن الإمبراطور داقيوس من ردِّهم على أعقابهم، فَوصلوا إلى فيليبوبوليس. وحاولَ الإمبراطور قطعَ خُطوطِ الرُّجوعِ عليها فَقُتِلَ مُحارباً. وعبرَ القوطُ المَضايقَ وانطَلَقوا في آسيةَ مَخرِّبين. ووَصلوا إلى البونط، فَعاونَهم بعضُ النَّصارى إمَّا خوفاً وإمَّا طَمعاً. فَكتبَ أحدُ الأساقِفة الخاضعينَ لِغريغوريوس يَستَوضِحُ كيفيَّةَ مُعامَلَةِ التَّائِبين من بينِ هَؤلاء. فأجابَه غريغوريوس بِرِسالةٍ عُرِفتْ بالقانونيَّة، لا تزالُ مرجعاً في الكَنيسةِ الأُرثوذكسيَّة في موضوعِ التَّوبةِ والتَّائِبين. وهاكَ ما جاءَ في الرِّسالةِ عن طبقاتِ التَّائِبين: - يَتِمُّ البُكاءُ في الخارجِ عندَ مدخَلِ الكَنيسة. ويَصرُخُ التَّائِبُ إلى المُؤمنينَ لدى دخولِهم الكَنيسة أنْ يُصلّوا لأجلِه. والإصغاءُ لِلكَلِمة يَجري داخِلَ مدخلِ الكَنيسةِ في الرِّواقِ الخارجي، حيثُ ينتَظِرُ التَّائِبُ حتَّى خروجِ الموعوظين. وليسمعِ الأسفارَ المُقدَّسة والعَقيدة ثُمَّ يَخرُج لأنَّه لا

يزالُ غيرَ لائِقٍ لِلصَّلاة. والسَّاجدونَ مِنهم يَسجدونَ عندَ المَدخلِ ويخرجونَ معَ الموعوظين. ثُمَّ يُقبَلُ التَّائِبُ معَ المُؤمنينَ ولا يَخرجُ معَ الموعوظين. وبعدَ هـذا كُلِّه يُسمحُ لِلتَّائِبِ أنْ يَشتَرِكَ في الأسرارِ المُقدَّسة –"[xxv]. وقدْ دَرسَ هذه الرِّسالة عددٌ مِن رِجالِ الكَنيسة في القرن الثَّاني عَشر أمثال ثيوذورس بالسامون، ويوحنَّا زوناراس، وألكسيوس أريستينوس. وفي عَصرِنا الحَديث:

- Dräseke J., **Johannes Zonaras Kommentar zum kanonischen Brief des Gregorios von Neokäsarea**, ZWTH 37, 1894, pp. 246-260[xxvi].
- الرِّسالةُ أَخيراً مَنشورَةٌ في P.G. 10: 1019-1048.

٣- **اعتِرافُ الإيمان** وهو عِبارَة عن عَرضٍ مُختَصَرٍ لِلعقيدةِ الثَّالوثيَّة، كَتَبَه بعدَ المَجمعِ الإنطاكيِّ الأوَّل بزمانٍ طويل. تَناقَلتِ الأَجيالُ هذا النَّص عَبر القدِّيس غريغوريوس النَّيصصي الذي يَقولُ بأَنَّه كانَ لا يَزالُ يُقرَأُ حتَّى أَيَّامِه. "يُوجدُ إلهٌ واحِدٌ أبو الكَلِمةِ الحيّ حكمَتِه المُستمِرَّة وقُدرَتِه وصورَتِه الدَّائِمة: والِدٌ كامِلٌ لِمولودٍ كامِل وأبو الابنِ الوحيد. ويوجدُ سيّدٌ واحِد، واحِدٌ من واحد، إلهٌ من إلَه، صورَةُ الإلَهِ ومِثالُه وكلِمتُه القَديرُ وحكمتُه واعي جَميعِ الأُمورِ وخالِقُ كُلِّ المَخلوقات، ابنٌ حقيقيٌّ من أَبٍ حَقيقيٍّ، غَيرُ مَنظورٍ منْ غَيرِ مَنظور، وغيرُ فاسِدٍ من غيرِ فاسِد، حيٌّ من حيٍّ وخالِدٌ منْ خالِد. ويوجدُ روحٌ قدُسٌ واحِدٌ مُستَمَدٌّ من الله ظاهِرٌ بالابنِ لِيُعلِّم الخَليقة، صورَةُ الابن، صورةٌ كامِلَةٌ لِكامِل. هو الحَياةُ وسببُ وجودِ الأَحياء. ينبوعُ مُقدَّس، قداسةٌ تُعطي القداسة وتَقودُ إليها. فيه يتجلَّى الله الآب الذي هو فوقَ الجَّميعِ وفي الجَّميعِ وفيه يتجلَّى الابنُ الذي في الجَميع. ثالوثٌ كامِلٌ في المَجدِ والخُلود والسِّيادةِ غيرُ مُنقسِمٍ أو مُنفصِل. وهكذا فإنَّه ليسَ في الثَّالوثِ أَيّ شيءٍ مَخلوق أو مُستَعبَد أو أيّ مرٍّ زَمن لم

[xxv] رُستُم الدَّكتور أسد، آباءُ الكَنيسة، الطَّبعَة الثَّانية، مَنشوراتُ المَكتَبةِ البولسيَّة، لُبنان، ١٩٩٠، الفَصل التَّاسع، صفحة ١٤١-١٤٤.

[xxvi] ZWTH: Zeit. für wiss. Theol.

يكنْ فيه ولم يكنِ الابنُ بحاجَةٍ إلى الآب أو الرّوحُ إلى الابن. والثّالوثُ بـلقٍ إلى الأبدِ بدونِ اختِلافٍ أو تَغيير"[xxvii].

- النصُّ منشورٌ في P.G. 10: 983-988.
- Fliche et Martin, **Histoire de l'Eglise**, II, Paris, 1946, pp. 335-336.

أمَّا الدِّراسات حولَه فهي:

Froidevaux L., **Le Symbole de St. Grégoire le Thaumaturge**, revue de sciences religeuses, 1929, 193-247.

٣- **رسائِل**: لِلقدِّيسِ العجائِبيّ العَديدُ منَ الرَّسائِل التي يَذكُرُها بَعضُ آباءِ الكَنيسة، ومِنهم القدِّيسُ إيرونيموس في كِتابه:

Jérome St., **De Viris illustribus**, 65, Epître 33: 5.

٤- "يرى بعضُ رِجالِ الاختِصاص أنَّ شرحَ سِفر الجَّامِعة الـذي وَرَد في مجموعَـةٍ تحتَ مُصنَّفاتِ غريغوريوس النـزينـزي هو لِلعجائِبيّ... أمَّـا الرِّسـالةُ إلى فيلاغريوس في المُساواةِ في الجَّوهر التي نُسبتْ لِلعجائِبي فإنَّها لِلنَّزينـزي. ولا نَعلَمُ شيئاً عن الحِوارِ مع أليانوس الذي أشارَ إليه باسيليوس الكَبير في رسـالَتِه المِئتينِ والعاشِرَة"[xxviii].

٥- وَرَدَتْ أيضاً تحتَ اسمِه **الفُصولُ الاثنا عشَر في الإيمان**، المَنشورة في:

P.G. 10: 1127-1136.

و **عرضُ الإيمانِ المُفصَّل**، المَنشور أيضاً في: P.G. 10: 1105-1124.

وتُنسبُ له كتاباتٌ ضِدَّ البِدعَةِ الصَّبيليَّة[xxix]، والأعياد وغيرِها.

[xxvii] رُستُم الدّكتور أسد، **آباءُ الكَنيسة**، الطّبعَة الثّانية، مَنشوراتُ المَكتَبةِ البولسيَّة، لُبنان، ١٩٩٠، الفَصل التّاسع، صفحة ١٤٣.

[xxviii] رُستُم الدّكتور أسد، **آباءُ الكَنيسة**...، صفحة ١٤٤.

[xxix] نسبةً إلى صابيليوس الذي اعتبَر أنّ الثّالوثُ الأقدس هو أُقنومٌ واحد مُثلّث الأسماء.

راجع: أبرص الأب ميشال و عرب الأب أنطوان، **المجمعُ المسكونيُّ الأوّل نيقيا الأوّل٣٢٥**، تاريخ المجامع المسـكونيَّة والكُـبرى ٢، طبعة أولى، توزيع المَكتبة البولسيَّة، جونية، ١٩٩٧، صفحة ٩٢-٩٤.

عَنونتِ التَّرجَمةُ الفَرَنسيَّةُ الكِتابَ "**شُكرٌ إلى أوريجينوس**"؛ أمَّا التَّرجَمةُ الإيطاليَّة فَعنونَتـه "**حَديثٌ إلى أوريجينوس**". وفي الواقِعِ يَندَرِجُ هذا الحَديثُ تحتَ قائِمَةِ الخِطابات، فَيَصُـحُّ أيضاً أن يُعنوَن "**خِطابٌ إلى المُعَلِّم أوريجنيوس**".

يَستَطيعُ مَنْ يَقرأُ مُقَدِّمَةَ التَّرجَمَتينِ الفَرَنسيَّة والإيطاليَّة، أنْ يُكَوِّنَ فِكرَةً عامَّةً عنِ النَّـصِ وأُسلوبِ كِتابَتِه. أمَّا من يَقرأُ شَخصيًّاً هذا الخِطابَ العَظيم، فَيَستَطيعُ هو أيضاً أنْ يَكتُـبَ مُقَدِّمَتَه الخاصَّة، شَرطَ ألاَّ يُحَمِّلَ النَّصَّ أكثرَ مِمَّا هو عليه في الحَقيقَة. فَنحنُ إذاً أرَدنا بَعـدَ اطِّلاعِنا على كِلتا المُقَدِّمَتين، أنْ نَقولَ فيه كَلِمَتَنا البَسيطَةَ النَّابِعة مِنْ عُمقِ تَعَلُّقِنا بِالكـاتِبِ ومُعلِّمِه.

نُشارِكُ طَبعاً رأيَ المُترجِمَين هنري كروزل وأوجينيو موراتًّا، في كَونِ الخِطاب يَنـدَرِجُ ضِمنَ سِلسِلَةِ الدِّفاعيَّات، وهذا أمرٌ ظاهِرٌ لِلغايَة. ومِنَ الطَّبيعيِّ أنْ يُدافِعَ غريغوريوس عـنْ مُعلِّمه، خاصَّةً وأنَّ العَلاقَةَ بَينَهما التي دامَتْ خَمسَ سنوات، قد اتَّسَمتْ بِالأُبوَّة من طَرَف أوريجينوس، وبالبُنوَّةِ منْ طَرَفِ تِلميذِه. ويَظهَرُ جَليًّاً أنَّ غريغوريوس قد تَوَصَّلَ إلى مَعرِفَـةِ مُعلِّمِه إلى أبعَدِ مَدى. مِنْ هُنا، نَظُنُّ أنَّ مِنْ واجِبِ عُلماءِ ودارِسي الآباء، إعادَةَ النَّظَـرِ في كُلِّ ما قِيلَ ويُقالُ عنْ أوريجينوس، هذا طَبعاً، إذا أخذوا على مَحمِـلِ الجـدِّ خِطـابَ غريغوريوس. ونحنُ قدْ رأينا في هذا الرَّجُلِ القِدِّيسِ والعَجائِبِيِّ أصدَقَ مَنْ تَكَلَّمَ عنْ مُعلِّـمِ الكَنيسَةِ أوريجينوس. ونَعتَقِدُ أنَّ كُلَّ مَنْ يَدَّعي مَعرِفَةَ أوريجينوس، ولَمْ يَقرأ كِتاباتِه كُلَّـها، ليسَ سِوى مُتَهوِّرٍ وقاس.

وما هذا الكِتابُ إلاَّ سيرَةٌ لأُوريجينوس، أكثرَ مِمَّا هو لِغريغوريوس. يَظهَرُ فيه الرَّجُلُ علـى حَقيقَتِه مُعلِّماً وعالِماً وفَيلَسوفاً وقِدِّيساً وبَطلاً مِنْ أبطالِ الكَنيسة.

عِندَما نَقرأُ المَقاطِعَ ٧٣-٨٠ مِنَ الخِطاب، نَرى بِوضوحٍ عُمقَ إنسانيَّةِ هذا المُعلِّم وضَخامَـةَ فَهمِه. أمَّا المقاطِعُ ٨٣-٩٢، فَما هي إلاَّ أوضَحَ تَعبيرٍ عَن أُسـلوبِه في شَـرحِ الكِتـابِ

المُقدَّس. يَجِدُ القارئُ فِعلاً في كَلِماتِ غريغوريوس وتشابيهِه رُوحَ وأُسلوبَ أوريجينوس في الشَّرحِ والاستِعارَةِ والوَصف.

ومِنْ خِلالِ المقاطِع ٩٣-١٠٠ نَعرِفُ امتِلاكَ أوريجنيوس مُنذُ ذلكَ الزَّمان، لأَحدَث وسائِلِ وأَساليبِ عِلمِ النَّفسِ والتَّربيَةِ اللذينِ تَوصَّلَ إليهما عَصرُنا الحَديث. ونُدرِكُ تَماماً في المَقاطِعِ ١٠١-١٠٨ كيفَ كانَ يَتَّبِعُ مَنهجاً في التَّربيةِ كامِلاً شامِلاً، لا تُستَثنى فيه النَّفسُ أو العَقلُ أو الوجدان.

وماذا نَقولُ في المَقاطِع ١٠٩-١١٤، حيثُ يَظهرُ أوريجنيوس مَوسوعَةً عِلميَّةً مُتَنقِّلَة، فلَمْ يَسبِق أنْ طَبَّقَ غَيرُه عِلم الفيزياءِ والرِّياضيَّات والفَلَك وجَعلَ مِنهُم أدواتٍ تَربَويَّة. وها نَحنُ نُشاهِدُه يَنطَلِقُ مِنَ الأَدنى إلى الأَسمى، فَمتَى عَرفَ الإنسانُ نَفسَه على حَقيقتِها، على جَميعِ المُستويات، واستَوعَبَ العَالَمَ مِنْ حَولِه، عِندئِذٍ يُصبِحُ قادِراً على البَحثِ في الأَخلاق التي يَجبُ التَّخلُّقُ بها، وهذا أيضاً نَقرأُه في المقاطِع ١١٥-١٢٦، حَيثُ تُصبِحُ الفَضائِلُ جهازاً (إنْ صَحَّ التَّعبير) يَعمَلُ كَسائِرِ أَجهزَةِ الجِسم، دونَ تَدَخُّلٍ مُباشَرٍ مِنَ الإنسان. لأَنَّ الفَضائِلَ قد تأَسَّستْ في نَفسِ إنسانٍ لا مَشاكِلَ عندَه، إنْ كانَ على الصَّعيدِ النَّفسي أو الفيزيولوجي أو الصِّحي أو الثَّقافي. وبَعدَ ذلِكَ يُسمَحُ لِلمَرءِ بالدّنوِّ مِنَ الرّوحيَّات، وقَدْ امتَلَكَ الفِطنَةَ التي نَتَعَرَّفُ عَليها في المَقاطِع ١٣٣-١٤٤، والاعتِدال والتَّمييز. ومعَ ذلِك، يَبقى الإنسانُ جاهِلاً ما لَم يُنعِمِ اللهُ عَليه بهذا الوَعي العَظيم، الذي هو ثَمَرةُ الإيمان. لأَنَّ كُلَّ العَطايا تَنبُعُ أوّلاً وأَخيراً مِنْ ذاتِ الله. فَغيرُ المُؤمِنينَ والمُلحِدين، كما نَرى في المقاطِعِ ١٤٥-١٥٢، لنْ يَتَوَصَّلوا مَهما بَلَغَتْ مَعارِفُهم، إلى امتِلاكِ أسمى ما في الكَون، أَ لا وهو الإدراكُ البَشري-الرّوحي.

على كُلِّ حال، لا بُدَّ لِلمَرءِ أنْ يَتَعَرَّفَ على جَميعِ التَّيّاراتِ الفِكريَّةِ والفَلسَفيَّة، كي يُتقِنَ فَنَّ المُحاجَجَةِ والإقناع، كما نَرى في المَقاطِع ١٥٣-١٥٧، ولَكِنَّه يَجبُ أَلاَّ يَتأَثَّرَ بِها أو بإحداها مُهمِلاً ما هو أسمى.

يَتَكَلَّمُ أيضاً غريغوريوس عنِ الفَلاسِفة ويُقارِنُ في مُعظَمِ خِطابِه، مَعارِفَهم وأَساليبَهم، ونَشعُرُ بتحدِّيه الكَبيرِ لهم. لقدْ أَدرَكَ تَماماً أنَّ المَعرِفَةَ الحَقيقيَّة هي مَعرِفَةُ اللهِ والتَّمثُّل به. وقِمَّةُ التَّشبُّه باللهِ، هي امتِلاكُ الرَّحمَةِ الإلَهيَّة، التي بِدونِها لا يُوجدُ سَبيل لِقِراءةِ الكِتاب

المُقدَّس وفَهمِه. مِنْ هُنا، مَنْ يَقرأُ المقاطِعَ ١٧٤-١٨٠، التي يَتَكَلَّمُ فيها غريغوريوس عنْ تَفسيرِ الكِتابِ المُقَدَّس، لا بُدَّ له مِنَ العَودَةِ إلى أوريجينوس الذي يَعتَبِرُ أنَّ لِلكِتابِ المُقَدَّس أَبعاداً ثلاثة: بُعداً حَرفيًّا، بُعداً أَخلاقيًّا، وبُعداً روحيًّا. وعلى هذا الشَّكل يوجدُ ثلاثةُ أنواعٍ مِنَ النَّاس: إنسانٌ ماديٌّ يَقرأُ الكِتابَ فلا يَرى مِنه سِوى الحَرف، فَيَتَشكَّكُ، ويُؤدي ذلِكَ إلى هلاكِه. والإنسانُ الأَخلاقيُّ الذي تَرفَّعَ عنِ الدُّنيويَّات، وباتَ يَعيشُ حَياةً أخلاقيَّةً لائِقةً بالوصايا، فَهذا يَقرأُ الكِتابَ ويُطبِّقُ مِنه ما هو أخلاقيٌّ على حياتِه، فيُؤدي ذلكَ إلى تَحسُّنه. أَمَّا الإنسانُ الرَّوحيُّ، فهو مَنْ تَركَ كُلَّ شيءٍ وعاشَ في الله حياةَ قَداسَةٍ وتَقوى، هذا وَحدَه يَستَطيعُ فَكَّ الرُّموزِ والغَوامِضِ في الكِتاب. ويَبقى المَعنى الأَخيرُ لِلكتابِ غامِضٌ لنْ يُكشَفَ إلاَّ في المَجيءِ الثَّاني.

يَختُمُ غريغوريوس خِطابَه بأَرَقِّ المشاعِرِ وأَنبَلِها مُستَعيراً صُوراً كِتابيَّة، تدُلُّ على امتِلاكِه في الحَقيقةَ لِكُلِّ شَخصيَّةٍ وأُسلوبِ أوريجينوس.

ولا بُدَّ أنَّ نَقولَ في النِّهايةِ كِلمَتَنا المُتواضِعة: **لو لَمْ يَكُنْ أوريجينوس قِدِّيساً لَما أَمكَنَه أَنْ يَصنَعَ مِنْ غريغوريوس قِدِّيساً عَجائِبيًّا.**

رِسالَةُ أُوريجينوس إلى غُريغوريوس

باختِصارٍ شَديد، يَبدو مِنْ أُسلوبِ الرِّسالة، أنَّها جوابٌ على خِطابِ غريغوريوس. ويَبدو أنَّه قد كَتَبَها سنة ٢٤٠ لِكي يَطمَئِنَّ عَليه ويُشَجِّعَه، خاصَّةً وقد مَضى على رَحيلِ العجائِبيّ سنَتان.

قد نَجِدُ في الرِّسالَةِ، شُعوراً مُسبَقاً لأوريجينوس عنْ شُذوذِ بَعضِ تلاميذِه، ووَقوعِهم في الهَرطَقة، وكأنَّنا به يَتَنَبَّأُ على مَصيرِه الذي سَيكونُ قاسياً بِسَبَبِ مَزاعِمِ وطُروحاتِ البَعضِ مِنهم، مَمَّا سَيُؤدي بِكلِّ أَسَف في المُستَقبل إلى الحُكم على أوريجينوس وتعاليمه.

خِلافٌ بَينَ دَارِسي خِطابِ غريغوريوس

أردنا، وبِغايَةِ الأَمانَةِ العِلميَّة، أَنْ نُعلِمَ القارِئَ عنْ اختِلافٍ في وُجُهاتِ النَّظر بينَ هنري كروزل ونوتان[xxx]، إذ ادَّعى هذا الأَخيرُ أَنَّ تِلميذاً آخرَ يُدعى ثيوذورس هو صاحِبُ الخِطاب. واستَنَدَ في طَرحَه على ما وَرَد في كِتابِ **تاريخ الكَنيسة** لأُوسابيوس المُؤرِّخ، الذي يُخبِرُ عن ثيوذورس بِأَنَّه كانَ معَ غريغوريوس أَثناءَ إلقائِه الخِطاب. إلاَّ أَنَّ كروزل يَرفُضُ هذا الطَّرح ويُؤَكِّدُ صِحَّة كاتِبِ الخِطاب غريغوريوس. ونحنُ بِدورِنا نُشارِكُه الرَأي.

[xxx] Nautin p., **Origène**, I, Paris, 1977, pp. 81-86, 146, 153, 155-161, 183-197, 447-448.

خِطابٌ إلى المُعلّم أوريجينوس

أ. رَهْبَةُ الكلام

١- إذا كانَ الصَّمتُ أَفضَلَ الأُمورِ بالنِّسبةِ لِكَثيرينَ، فَإنَّه يَبدو لي أَيْضاً الأَفضَلَ في هذه اللَّحْظَة، لِكوني شِئتُ أَمْ أَبَيتُ أَنا مُضطَرٌّ أَنْ أَسْكُتَ.

٢- لسْتُ في الواقِعِ مُتمَرِّساً أَو خَبيراً في مَجالِ الخِطاباتِ الجَّميلةِ والأَنيقَةِ التي يستَخدِمُ أُسْلوبُها كَلِمات وتَعابيرَ مُحْكَمَةَ الاخْتِيارِ والبُرهان، وحَيْثُ إِنْشاؤُها المُنتَظِمُ يُؤلِّفُ سَلاسِلَ تَخْلو مِنْ أَيِّ عَقَبات. وممَّا لا شَكَّ فيه، أَنِّي بِطبيعَتي غَيرُ مُهيَّأٍ لِلخَوضِ في مِثْلِ هذا المَجالِ الذي يَتطلَّبُ لَمسَةً ونعمةً هُما مِنْ سِماتِ اليونانيين.

٣- بلْ بالعَكْس، فأَنا ولِثماني سَنَوات خَلَتْ[1] لَمْ أَنلْ فُرصَةً كي أُلقيَ أَو أَكتُبَ قَطُّ خِطاباً طَويلاً كانَ أَمْ قَصيراً، و لَمْ أَسمعْ أَحْداً كَتَبَ أَو تَفوَّه سِرًّا أَو عَلَناً بِمَدائِحَ احْتِفاليَّةٍ ومُناقَشات جَدَليَّة، بلْ بالأَحْرى سَنَحتْ لي بَعْضُ الفُرَصِ أَنْ أَسْتمِعَ لأولئِكَ الرِّجالِ الرائِعينَ الذينَ اعتَنَقوا الفَلسَفَةَ الجَميلَة[2].

٤- وهَؤلاءِ الرِّجالِ قلَّما اهْتمُّوا بجمالِ اللُّغةِ وأَناقَةِ الكَلِمات، بلْ بالعَكسِ كانوا يَضَعونَ الكَلِماتِ في المَرتَبةِ الثَّانية، مُريدينَ تَحْديداً كَشْفَ كُنهِ الحَقائِقِ وتَوضيحَ جواهِرِها كُلٌّ على حِدة.

٥- لا بلْ، أَفتَرِضُ أَنَّهم يَرغبونَ نَقشَ أَفكارِهم الجَميلةِ والدَّقيقةِ بِأُسْلوبٍ جَميلٍ ورائِع، ويَرغَبونَ بذلكَ أَشدَّ رغبَة؛ إلاَّ أَنَّه يَصعُبُ عليهم كَبَشرٍ لهم ذاتُ العقلِ الذي يَبقَى صَغيراً، أَنْ يُعانقوا قُوَّةَ فكرِهم المُقدَّسةَ والإلهيَّة رابطين إيَّاها بِفصاحَةِ الأُسْلوب[3]، وهُما ميزتانِ مُتعارِضتانِ فيما بينَهما ولا يُمكنِهما التَّواجُدُ في شخصٍ واحِد.

٦- وإِنْ صَحَّ فِعلاً كَونُ الصَّمتِ صَديقَ و مُؤازِرَ التَّأمُّلِ والبَحْث، فَهو أَيضاً يَنْبوعُ وفْرةِ ورَشاقَةِ اللُّغة اللتينِ تَتطلَّبانِ بالضَّرورةِ التَّمْرينَ الدَّائمَ .

---

[1] أمضى غريغوريوس وأثيناذوروس ثلاث سنوات في دراسةِ اللغةِ اللاتينيَّة والمبادئ الأولى لِلتَّشريع الروماني قبلَ أن يَتَتلمذا لأوريجينوس.

[2] المقصودُ هنا هما مُساعدا أوريجينوس، و ربَّما هما تيبوكتيستوس و فيموليانوس اللذانِ توالِيا في الأسقفية على قيصريَّة فلسطين و قيصريَّة الكابادوك.

[3] يستشهدُ محلّلو النّص برسالة القدّيس بولس الأولى إلى أهلِ كورنثس ٤: ١٩-٢٠ : و لكنّي سأقدمُ قريباً إن شاءَ الربّ، لأطّلعَ، لا على أقوالِ أولئكَ المنتفخينَ من الكبرياء ، بلْ على قُدرتِهم، فليسَ ملكوتُ اللهِ بالكلامْ، بل بالعمل .

٧- يجبُ ألاّ نَغفل[٤]، أنّ دراسةَ مادّةٍ أُخرى تأسُرُ عَقليْ وتُقيّدُ لِسانيْ في فَمي[٦] عِنْدَما أُريدُ التّعبيرَ باليونانيّةِ في أقلّ الأشياءْ: إنّها دراسةُ قَوانيننا الرّائعةِ التي تُنظّمُ سُلوكَ جَميعِ النّاس الخاضِعينَ لِسُلطةِ روما. وتَتطلّبُ هذه القَوانينُ التِزاماً بالِغاً ودِراسَةً عَميقَةً كي يُوفّقَ الإنسانُ فيما بَينَها، فهيَ قَوانينُ حَكيمةٌ بحدّ ذاتِها ودَقيقَةٌ ومُتنوّعةٌ وعَظيمةٌ، وبكلِمةٍ واحِدةٍ إنّها تَحملُ روحاً يونانيّةً لَكِنّها وصَلَتنا باللاتينيّة، تِلكَ اللّغةِ الرّائعةِ دون شَكّ، والمُشرِّفةِ والمُتجانسةِ والسُموّ المَلكيّ، ومَعَ ذلِكَ يَصعُبُ عليّ تَعلُّمها، ولا خيارَ لي إلاّ بها. وإذا اعتَبرنا أنّ التّعابيرَ التي نَستخدِمُها لَيستْ سِوى صورٍ لِعواطِفِنا، فَلنعترفنّ إذاً بأنّ البُلغاءَ يُشبهونَ الرسّامينَ الكَفوئينَ والماهِرينَ في فنّهم والمُزوّدين بِمَوادّ التّلوينِ والقادِرينَ بدونِ صُعوبةٍ أنْ يُصوِّروا لَوحاتٍ مُشابِهةً بالكامِلِ لِلصُّوَرِ مَهما كانَتْ مُتنوّعةً ونَفيسةً في تَعدُّدِ أَلوانِها.

ب. عرفانُ الجَميلِ لله بسببِ اللقاءِ مع أوريجينوس

٨- أمّا نحنُ فنَجدُ أنفُسَنا في وَضعِ الفُقَراء، إذ تَنقُصنا الأَلوانُ المُتنوّعةُ أو ربّما لم نَمتلِكها قطّ، أو فَقَدناها، فَعلَينا أنْ نَرسمَ بالفَحمِ والطّينِ[٧] وأنْ نَنطقَ بتَعابيرَ عامّةٍ وفقَ إمكاناتِنا، أمّا عواطِفُنا الحَقيقيّةُ فنُعبِّرُ عَنها ببَساطةٍ مُحاولينَ إعْطاءَ الأَهميّةِ لِعواطِفِ الوِجدان، حتّى ولو لَم تَكنْ بأُسلوبٍ عالٍ و مُنمّق، فَهي تَبقى على الأقلّ كاللّوحةِ المَرسومةِ بالفَحم. وفي حالِ أَتَتْنا بَعضُ الصُّورِ الجَميلةِ والبَليغة، فإنّنا نقْبَلُها بسرورٍ ونَجعَلُها لنا، بعدَ تحويرٍ مُنتَبه.

٩- سَببٌ ثالِثٌ مُختلِفٌ يمنعُني منَ الكلامِ و يجعَلُني أحيدُ عمّا أَبغيْ ذِكرَهُ، ويُمسكُني عنِ النُّطقِ أكثرَ مِنْ باقي الأَسْباب، مُلزِماً إيّايَ بالهُدوء: إنّهُ المَوضوعُ الذي أنا بصَدد مُعالجَته. فَبعدَ أنْ كانَتْ لديّ الرّغبةُ الحيّةُ بالتّحدُّثِ فيه، أَتوقّفُ الآنَ مُتردّداً.

---

[٤] يُلمّحُ غريغوريوس في هذا المقطع إلى دراستهِ للحقوق، و للحظةٍ يُعلّيْ شأنَ روما الإمبراطوريّة و عظمةَ قوانينها.

[٥] في النصّ اليوناني الحرفي يستعملُ غريغوريوس فعلْ احتلّ عقلي، و هي استعارةٌ من اللغةِ العسكريّة.

[٦] استعارة مثلُ سابقتها.

[٧] ٢ كورنثس ٤: ٧ : "على أنّ هذا الكنزَ نحملُهُ في آنيةٍ من خزفٍ لتكونَ تلكَ القُدرةُ الفائقةُ لله لا من عندنا".

١٠- أنْوي التَّحدُّثَ عنْ رجُلٍ يَبدو في الظَّاهِرِ رجُلاً، أمَّا هو فَبعُيونِ القادرينَ على تَقديرِ ذاكَ السموِّ الذي ارْتَقتْ إليهِ نفسُهُ، قدْ تَجاوزَ الحالَةَ البَشريَّةَ مُتخطِّياً إيَّاها إلى حالةٍ أفْضل في ارْتِقائِهِ نَحو التَّألُّه.

١١- لَنْ أمدَحَ أُسرَتَهُ وأذكرَ صِفاتِهِ الجِسمانيَّةِ، لذا أتأخَّرُ مُؤجِّلاً المَوضوعَ خَوفاً. ولنْ أُثْنِيَ أبداً على قُوَّتِهِ أو جَمالِهِ، فَهذه إنَّما هي مَدائحُ صُبيانٍ قلَّما يَكترِثونَ بتَكافؤِ أحاديثِهم كي تَأخُذَ حقَّ قيمَتِها.

١٢- لنْ يَكونَ مِنْ مِضْمارِ عَمَلي التَّحدُّثُ عنْ أُمورٍ غيرِ ثابتةٍ ودائِمَة، فهي تَبقَى عُرضَةً لِلفَساد. ولو أُوكِلتْ إليَّ مهمَّةُ القيامِ بذلكَ باحتِرامٍ وبطريقةٍ لائِقةٍ غيرِ باردةٍ أو تافِهة، فَمعَ ذلكَ سَيكونُ الأمرُ بدونِ فائِدةٍ أو جَدوى، فأنا لا أَقترِحُ منْ تِلقاءِ إرادَتي التَّكلُّمَ بهذا، أمَّا و قدْ أُوكِلَ إليَّ الدَّور، فَلنْ يَجفَلَ حَديثي ولنْ تَنهمَّ مَقاطِعي حتَّى ولو كانَتْ ذا مُستوىً أدنى مِنْ كَرامةِ مَوضوعي.

١٣- سأذكرُ إذاً ما هو سامٍ في هذا الرَّجُل، وما هو قَريبٌ مِنَ الأُلوهَة، سَأذكرُ السَّجايا المُحتَجزَةَ في الجِسمِ الظَّاهرِ والمَائِتِ والتي تبذُلُ جُهداً شاقّاً لِلتَّشبُّه بالله. هذا ما أودُّ ذكرَهُ مُستعرِضاً أشياءَ مُهمَّةً وعَظيمَة. وسأُحاولُ خُصوصاً أنْ أشكُرَ العنايةَ الإلهيَّةَ التي مَنحَتني نِعْمَةَ الالتِقاءِ بهذا الرَّجُل. لمْ أكنْ لأتَصوَّرَ أبداً أنْ أُحرَمَ مِنْ امتيازٍ كَبيرٍ كَهذا، أليسَ لِمثلِ هاتيكَ الأسبابِ أنا الفَردَ المِسكينَ بالكليَّةِ والمُفتقِرَ لِلكَفاءَة، أُوجَدُ خائِفاً مُتردِّداً وميَّالاً لِلصَّمت؟

١٤- أعتَقِدُ مِنَ الصَّوابِ ألاَّ أتكلَّفَ، لأنَّي أخْشى بِحُجَّةِ الشُّكر، التَّجاسُرَ واستِخدامَ كلِماتٍ غيرِ رَزينةٍ ومُبتَذلةٍ ولا قيمَةَ لها، أنا الذي يَطرحُ مَواضيعَ مُهمَّةً ومُقدَّسة، فأبتعِدُ عنِ الوصولِ إلى الحَقيقَةِ وأُخفِضُ مِنْ قيمَتِها أمامَ أنظارِ مَنْ يُؤمِنونَ بها، فَيُصبحُ خِطابي رُغمَ ضُعفِهِ غيرَ مُنسجِمٍ مَعَ الوقائِعِ، وبالأحرى يُصبحُ عِندَهم نَذالةً.

١٥- أَليسَ صَحيحاً، أَيُّها المعلِّمُ المَحبوبُ[٨] أَنْ تَكونَ أَعمالُكَ فَوقَ كُلِّ انتِقادٍ أَو تَبخيسٍ؟ وبالأَخَصِّ أَعمالُ الربِّ التي تَدومُ بِدونِ تحوُّلٍ في الجَوهرِ ولا يَطالُها أَذىً بِكلِماتِنا المِسكينَةِ و غَيرِ الجَديرَة.

١٦- على كلِّ حال، لا أَعرِفُ بأَيِّ أُسْلوبٍ نَستَطيعُ النَّجاةَ مِنْ صيتِ الجَسارةِ والمُجازَفَة، إذ بالرُّغمِ مِنْ ضُعفِ ذكائِنا وافْتِقادِنا الأَهليَّة، نَتَناولُ بِجَهلٍ مَواضيعَ هامَّةً تَفوقُنا.

١٧- لو أَرَدنا النُّطقَ في مَجلسٍ آخرَ وأَمامَ أَشْخاصٍ آخرينَ بِكلِماتٍ صِبيانيَّةٍ، لَكُنَّا حقّاً تَجَرَّأنا وتَجاسَرنا. رُغمَ ذلك، فالتَّهوُّرُ الذي قد نُتَّهمُ بِهِ لَنْ يَكونَ وقاحةً، لِكوننا لا نَستعمِلُ تلكَ الجُرأةَ في حَضرَتِكَ.

١٨- سنبلُغُ الآنَ إلى ذُروةِ طَيشِنا، لا بلْ سَبَقْنا وبَلغناها، فَقدْ تجرَّأنا واخْتَرقنا بِأَرجُلٍ غَيرِ مَغسولةٍ[٩] آذاناً يَزورُها الكَلِمةُ الإلهيُّ نفسُهُ بأَرجُلِهِ العاريَة، الأَمرُ الذي يَبدو لأَغلبِ النَّاس كَلاماً مَلغوزاً وغامِضاً كالجُلودِ السَّميكة. أَمَّا الأَرجُلُ العاريَةُ، إذا تَجرَّأتُ و قُلتُ، فَهي تَدخُلُها (تدخُلُ الآذان) واضِحةً جليَّة. أَمَّا نحنُ، فأَحاديثُنا البَشريَّةُ تُشبهُ الكَلامَ البَذيءَ أو الوَحِلَ، وقد تَجرَّأنا وسَكَبناها في آذانٍ تمرَّستْ على سَماعِ كَلِماتِ طُهرٍ إلهيَّة لا قياسَ لها.

١٩- أَ لا يَجبُ علَينا أَنْ نَقتنعَ إذاً بأَنَّنا قدْ أَخطَأنا حتَّى هذِهِ اللَّحظة؟ أَ وليسَ واجِباً بأَلاَّ نَندَفِعَ أَكثرَ في حَديثِنا وأَنْ نَضعَ لهُ حدّاً؟ إنَّها لَرغْبَتي الحَقيقيَّة.

٢٠- فَليؤذَن لي على كُلِّ حالٍ بما أَنَّني أَتَجرَّأُ، ولو لِمرَّة، أَنْ أَعرُضَ السَّببَ الذي دفَعَني لِمواجَهةِ هذا الامْتِحان، إنْ كانَ بِالمستطاعِ مُسامَحتي على هذا التَّهوُّر.

ت - شرفُ المُحسنين

٢١- إنّي أَعتبرُ نُكرانَ الجَميلِ شرّاً فَظيعاً وشَنيعاً ومُخيفاً لِلغايَة.

---

[٨] يستعملُ في اليونانيّةِ تعبيراً خاصّاً و هو " أيها الرأسُ المحبوبُ " و هو تعبيرٌ عاطفيٌّ لكنّهُ محترمٌ، و نجدهُ متكرّراً في كتابات الآباء خاصّةً في مراسلاتهم.

[٩] يبدو أن غريغوريوس يستوحي هذه الصّورة من كتاب أوريجينوس " تعليق على يوحنّا " و خاصّةً في تفسيرهِ للفصل ١٣: ٢-١١.

٢٢- فَمنْ لا يَجتَهدْ بعدَ حُصولهِ على إحْسانٍ ما، مبادلَتَهِ بالمِثل، إنْ كانَ يَستطيعُ، عليهِ على الأقلِّ، أنْ يُقدِّمَ الشُّكرَ شَفويّاً، و إلاَّ فهوَ يَتصرَّفُ كَرجُلٍ أبلهَ وعَديمِ الحِسِّ والضَّمير.

٢٣- و إنْ هوَ أدركَ ووَعى الخيرَ المَصنوعَ لهُ ولَم يَحفَظْ ذكرَهُ في قَلبهِ على الدَّوام، فَهذا رجُلٌ كَسولٌ وناكِرٌ لِلجَميلِ ومُلحد، ويَرتكِبُ أخطاءً لا تُغفرُ، لا لِصاحبِ شأنٍ و لا لِصغيره.

٢٤- وفي حالِ أنَّهُ كانَ ذا شأنٍ عَظيم، فهوَ يَبقَى غيرَ مُستحقٍّ لِمَا تلقَّاهُ مِنْ أفضالٍ كَبيرةٍ لأنَّهُ لَم يَتلفَّظ بشفاهِ العُرفان. وإنْ كانَ شَخصاً وَضيعاً وشَقيّاً، فَلِمَ لا يَمدحُ على قدْرِ طاقتِهِ أمامَ ذوي الشَّأنِ الرَّفيعِ وحتَّى أمامَ البُؤساء، مَنْ صَنَعَ لهُ الجَميل.

٢٥- مِنَ المُؤكَّدِ إذاً أنَّ أهمَّ الرِّجالِ وأكثرَهُم صلابَةً في التَّركيزِ على قُدرَتِهم وثرواتِهم و غناهُم، يَلتزمونَ بتقديمِ أكثرِ المَدائحِ عَظمةً وتَمجيداً وتناسُباً معَ قِواهم، لِمَن صنعَ معهُم صَنيعاً حَسناً.

٢٦- أمَّا البُسَطاءُ الذينَ يَعيشونَ في ضائِقَة، فيَجدُرُ بهم ألاَّ يَكونوا مُهمِلينَ أو فلتِرين، وألاَّ يَستَسلِموا لفِكرةِ عَجزِهِم عَنْ تَقديمِ شَيءٍ لائِقٍ وكامِل.

٢٧- بالعَكس، كمْ يُلائِمُ الفُقراءَ مِنَ النَّاس، لكنَّهُم مُفعَمونَ بالمشاعِرِ الطيِّبة، أنْ يُكرِّموا ذلكَ الإنْسانَ بسِماتِ التَّشريف، التي لا يُقدِّمونها انطِلاقاً مِنْ مُستوى مَنْ يُكرِّمون، بلْ وِفقَ اسْتِطاعتِهم التي على أساسِها يَتصرَّفون. وكمْ سَيَجدُها ذاكَ سارَّةً تَلمُسُ القَلب. إنَّهُ بلا شَكٍّ لنْ يَجدَها أدنى مِنْ سائرِ التَّكريمِ العَظيمِ الذي يَستَطيعُ آخرونَ تَقديمَهُ له، شَرطَ أنْ تَتحلَّى بعاطفةٍ جَمَّةٍ وحِسٍّ صِرْف.

٢٨- هكذا قد كُتِبَ في الكُتُبِ المُقدَّسةِ[١٠] عنْ تِلكَ السيِّدةِ المُتواضِعَةِ والمُعدَمَة، التي تَوسَّطتْ أثرياءَ الرِّجالِ وذوي النُفوذ، بَينَما كانوا يُقدِّمونَ تقادمَ ثَمينةٍ وذاتِ أهميَّةٍ وِفقاً لِثرواتِهم. أمَّا هي فكانَتِ الوَحيدةَ بَينهُم التي قدَّمَتْ هِبَةً في غايَةِ التَّواضُع. إلاَّ أنَّ هِبتَها تَناسبَتْ معَ كُلِّ ما تَملُك، وبالتَّالي فقدْ اعتُرِفَ لها بأنَّها أعطتِ الأكثَر.

---

[١٠] يستعيرُ غريغوريوس نصَّ القدّيسِ مرقُس ١٢: ٤١-٤٢ و نصَّ القدّيسِ لوقا ٢١: ١-٤ و يضَعُهُ بشكلٍ فنيٍّ جميل.

أعتقِدُ أنَّ الكَلِمة الإلهيّ، لم يُقدِّر بَهاءَ وعَظمَةَ الِهيةِ الماديَّةِ الخارجيَّة، بلْ بالأحرى النيَّةَ والحسَّ اللَّذينِ تَحلَّى بهما التَّبـرُّع.

٢٩- فَلا تَتردَّدنَّ إذاً، خَوفاً مِنْ أَنْ يَكونَ شُكرُنا غيرَ مُعادلٍ لِلخَيرِ الذي تَلقَّيناه، بـل بالعكس، أَنْ نُحاولَ ونَتجرَّأَ على مُبادَلةِ التَّكريمِ ولو كانَ على غَـير المُستوى، فليكُن، أَقلَّهُ، تَكريمُنا مُلائماً لِوسائِلِنا. وإنْ لَمْ نبلُغَ في خِطابِنا الهَدفَ كامِلاً، فَعلى الأَقلِّ نبلُغُهُ جُزئياً، مُتجنِّبينَ وصمَةَ الظُّهورِ لِلعَيانِ ناكرينَ للجَميلِ كُليَّاً.

٣٠- وإذا ما استَترَ الصَّمتُ الكامِلُ بِقناعِ العَجزِ عَنِ الكَلام، فَهذِهِ إشارَةٌ مَسكَنة. أَمَّا مُحاولةُ الردِّ فَهي دَليلٌ على طيبِ المَشاعِرِ، حتَّى ولو كانَتْ كَفاءةُ الشَّاكِرِ أَدنى مِنْ كَرامَةِ المُعطي. فَلو لَمْ يكُنْ بوسعيَ إذاً التَّكلُّمُ بالمكارِم، فَلنْ أَصمُتَنَّ أَبداً، مُتَمِّماً ما بإمكانيَ فعلُه، فَيكونُ ذلكَ مِنْ دَواعي افْتخاري.

٣١- سَأَتلفَّظُ إذاً بخطابِ الشُّكرِ هذا، بَيدَ أَنِّي لا أَبْغي التَّوجُّهَ إلى إلهِ الكَونِ الـذي، تنبُعُ منه كُلُّ الخَيرات، بالعَكس، مِنَ الضَّروريِّ أَنْ يُحَرِّكَ هـو كـلَّ تشـكُّراتِنا وأَناشيدِنا ومَدائِحِنا.

٣٢- لو قَدَّمتُ ذاتيَ بالكُلِّيَّة، أَنا الذي، لَمْ أَتلطَّخ بعدُ بدَنَس، ولَمْ أُوصَـم بذنـبٍ أَو تَدنيسٍ لِلقُدسيَّات، ولو تَقَدَّمتُ عارياً وفي غايةِ البَّراءةِ والنَّقـاوةِ والاسـتِنارة، وخالياً مِنْ كُلِّ ما هو شرٌّ، وكُنتُ كالمَولودِ الجَديدِ، فَأَنا لَستُ أُقـدِّمُ أَيَّ عطيَّـةٍ تُناسبُ تَمجيدَ ومُكافَأةَ الرَبِّ وخالِقِ الكَون.

٣٣- ولو اتَّحَدَ جَميعُ الرِّجالِ مَعاً أَو بَادرَ كُلٌّ بمُفرده، ولو اتَّحدتْ جَميعُ الكائِنـاتِ النَّـقيَّة بروحٍ واحِدٍ، وشَكَّلَ الجَميعُ جَوقاً واحِداً مُنطلِقاً بإجماعِ العَقـل، فَلـنْ يَستَطيعوا أَنْ يَمدَحوا اللهَ كَما يَليق.

٣٤- إنَّ أَفضَلَ عَملٍ يُمكنُ أَنْ تَقومَ بِهِ إحْدى خلائِقِ اللهِ لِشُكرِه، هي أَنْ تَختارَ أَفضَـلَ الصيَغِ وأَكملَها، بالإضافَةِ لاختيارِها أَكثرَ التَّعابيرِ سُمواً لِتَـتَفوَّهَ بها. وهذه إنَّمـا هي أُسلوبٌ لا يُمكنُها الحصولُ عليه إلاَّ مِنَ اللهِ وحدَه.

ث – الملاكُ المُعلّم

٣٥- فَلنَتوجّه إذاً بالمدائحِ وأناشيدِ الشُّكرِ لِلملِكِ[١١] المُعتني بكلِّ المَسكونَة، ويَنبوعِ الخَيرِ الدَّائمِ الذي لا يَنضُب[١٢]، والذي يَستطيعُ وحدَهُ أَنْ يَشفيَ ضُعفَنا[١٣]، إلى حارسِ ومخلِّصِ نُفوسِنا، إلى ابنِ اللهِ البِكْرِ الكلِمةِ الخالِقِ الذي يُسيِّرُ الكَون.

٣٦- هُوَ وحدَهُ يَستطيعُ أَنْ يَرفعَ لِلآبِ تَسابيحَ دائِمةً ومُستمرَّةً لأَجلِهِ ولأَجلِنا، لأَجلِ كُلِّ إنسانٍ خُصوصاً، ولأَجلِ النَّاسِ كافَّة في الوقتِ ذاتِه، لأَنَّهُ هُوَ الحقيقةُ بالذّات[١٤] والحِكمةُ و قُوَّةُ الآبِ إلَهِ الكُلّ[١٥]. وذلِكَ لِكونِهِ واحِداً معهُ في كُلِّ شَيء[١٦]. فَمِنْ غيرِ المُمكنِ إذاً أَلاَّ يَمدحَهُ عَنْ جَهلٍ أَو نسيانٍ أَو ضُعف، وكأَنَّهُ مُنفصِلٌ عَنِ الآبِ أَو عاجزٌ عنهُ. ومِنْ غيرِ المُمكنِ أيضاً أَنْ يترُكَهُ بإرادتِه بدونِ تمجيدٍ (و لو تَسافَهنا بهذِهِ العبارة).

٣٧- هوَ وحدهُ قادرٌ كُلِّيًّا أَنْ يَملأَ، عنِ استِحقاق، كَميَّةَ المدائحِ المُوجَّهَةِ للآب. أَمَّا الآبُ وهوَ أَبُ كُلِّ شَيء، فَقدْ جعَلَ من ابنِهِ واحِداً معه، بِفضلِ القُوَّةِ نفسِها التي منحَها له، مُعيداً لذاتِهِ، لو صحَّ التّعبير، المَجدَ الذي هُوَ تمجيدُهُ أَصلاً. وهذا شرَفٌ حَصلَ عليهِ الابنُ البكرُ[١٧] كلمَةُ اللهِ الذي في الآب، الأَوَّلُ والوَحيدُ بينَ كُلِّ كائِناتِ جنسِه.

٣٨- أَمَّا مِنْ جهتِنا نحنُ البَشر، فَوسيلتُنا الوَحيدةُ لإظهارِ العُرفانِ بالجَميلِ والورع، تُجاهلَ كلِّ الخيراتِ التي نَتلقّاها مِنَ الآب، لنْ تَكونَ إلاَّ بواسطةِ الابنِ الذي مِنْ خَلالِه، نُقدِّمُ عُرفانَ الجَميلِ بحسَبِ إمكانيَّتِنا مُعترفينَ أَنَّ السَّبيلَ الوَحيدَ لإظهارِ التَّقوى إنَّما يَكمنُ بالتَّذكُّرِ الدّائمِ لِلعلَّةِ الأولى الصَّانعة جميعِ الأشياء (اللهِ) بواسطةِ الابْن.

---

[١١] يأخذُ اللهُ الآب لقبَ الملك في كتابِ المزامير ٤٧ (٤٦): ٣ ، و متى ٥: ٣٥ ، و رسالة القدّيس بولُس الأولى إلى تيطُس ١: ١٧ .

[١٢] يستعيرُ غريغوريوس نصَّ الإنجيلِ يوحنّا ٤: ١٤ و هو لقاءُ يسوع مع السّامريّة.

[١٣] يستعملُ النّبي أشعيا فعلَ " شفى " " طبَّبَ" رمزيّاً، ٦: ١٠، و نجدُهُ كذلكَ عند يوحنّا ١٢: ٤٠، و كذلك الأمر عند القدّيسِ أغناطيوس الأنطاكي في رسالتِهِ إلى أهلِ أفسُس ٧: ٢، حيثُ المسيحُ هو طبيبُ الجّسدِ و النّفس.

[١٤] راجع يوحنّا ١٤: ٦.

[١٥] راجع أيّوب ١٢: ١٣، و كورنثس الأولى ١: ٢٤.

[١٦] راجع يوحنّا ١٠: ٣٨، ١٤: ١١، و رسالةَ يوحنّا الأولى الجامعة ٤: ١٥، و رسالةَ القدّيسِ أغناطيوس الأنطاكي إلى إزمير ١: ١٣.

[١٧] راجع رسالة يوحنّا الأولى الجّامعة ٤: ٩.

٣٩- لِنعتَرِفنَّ إذاً أنَّه الكائِنُ الكليُّ الكَمال والحيّ، الكلِمةُ الذي يَحيا في العَقلِ وهو عِلَّةُ حياتِه[١٨] (العقل)، ويَبقى وحدَه الكلِمةُ الأَوفَق، التي مِنْ خِلالِها نَستطيعُ تَقديمَ الشُّكرِ والتَّسابيحِ لِلعِنايةِ الإلهيَّة السَّاهِرة دوماً على كلِّ شَيء، والتي تَعتني بِنا في أَعظمِ الأُمورِ وأَصغرِها، ونَقودُ بحضورِها خُطانا.

٤٠- أُريدُ لِحديثيَ هذا أنْ يكونَ تعبيراً عن عُرفانِ الجَميل تُجاهَ هذا الرَّجُلِ القِدّيس أَكثرَ من أيِّ أُناسٍ آخرين. ولو أَردتُ إعلاءَ شأنِ إحدى تلكَ الكائِناتِ الإلهيَّةِ غيرِ الظَّاهِرة والتي تَعتني بالنَّاس، فَلَيكنْ أيضاً حديثي شُكراً لِذاك الذي وفقَ مُخطَّطٍ مُهمٍّ، يقودُني ويُوجِّهُني ويُربّيني مُنذُ نُعومةِ أَظافري.

٤١- إنَّه ملاكُ الربِّ القِدّيس، "الذي يَعولوني مُنذُ صِباي"[١٩] كما يقولُ ذاكَ الرَّجلُ العَزيزُ على الربّ، قاصِداً بوضوحٍ ملاكَه[٢٠].

٤٢- لَكِنَّه كَبيرٌ، وبالتَّالي، فَكلامُه إذاً عَنْ كائنٍ كَبير، عَنْ مَلاك، أَو رُبَّما "ملاكِ المَشورةِ نَفسِه"، مُخلِّصِنا المُشتَرَك الذي، حَصَلَ عليه حارِساً ذاكَ الرَّجُل لأَجلِ كمالِه. لا أَستَطيعُ قَولَ شيءٍ آخرَ سِوى أنَّ هذا الرَّجُلَ يَعرِفُ ويُسبِّحُ ملاكَه أَيّاً كان.

٤٣- أَمَّا نحنُ، فَإضافَةً لِذلك الذي هو قائِدُ جميعِ النَّاس، نعرِفُ ونُسبِّحُ أيضاً مَنْ هو، أَيّاً كان، المُعلِّمُ الخاصُّ، ومُرافِقُنا خُطوَةً خُطوة منذُ الطُّفولَة.

٤٤- هذا المَلاكُ الذي كانَ يُهذِّبُني بأُسلوبِه ويَعتني بي جيّداً في كافَّةِ الظُّروفِ وبدونِ استِثناء. في الواقِعِ ليسَ بمقدورِنا معرفةَ صالِحِنا أو صالِحِ أَحَدِ أَقربائِنا، لأَنَّنا عُميانٌ لا نَنظُرُ إلى أَمامِنا[٢١] بشكلٍ يُخوِّلُنا تَمييزَ حاجاتِنا: فعلى المَلاكِ تقعُ هذه المُهمَّةُ لِكونه يَرى سَلَفاً ما هو مُفيدٌ لِنفوسِنا. وكما في الماضي الآنَ أَيضاً يُرَبّيني ويُعلِّمُني ويُرافِقُني.

---

[١٨] راجع رسالة القدّيس بولس إلى العبرانيين ٤: ١٢؛ ويوحنّا ٥: ٢٦.

[١٩] تكوين ٤٨: ١٥.

[٢٠] الكلامُ في المقطع المَذكور، تكوين ٤٨: ١٥، إنّما هو عن إسرائيل الذي تبنّى العِنايةَ بإفرائيم ومنسّى أولاد يوسف اللّذين باركَهُما. وعِبارةُ "كما يقولُ ذاك الرجُلُ العزيزُ على الربّ" يبدو أنّها تعودُ لِيعقوب. ويَعتبرُ مُحلّلونَ آخرون لِهذا النّص إنّ أوريجينوس هو المَقصودُ هُنا.

[٢١] راجع متّى ١٥: ١٤؛ لو ٦: ٣٩؛ روما ٢: ١٩.

٤٥- وإنَّه خصوصاً قد أنابَنا خيراً أعتبِرُه أنا يَفوقُ كُلَّ خَير. إذ سبَقَ ودبَّرَ ارتِباطي بهذا الرَّجُلَ الذي لَمْ تَكُنْ تَربُطني به أيُّ قرابَةٍ دمويَّةٍ أو ذاتِ نَسل، ولَم يكُنْ مَترلُه قَريباً من مَترلي، ولَم يكُنْ من جيراني، ولا يَنتَمي لأهالي بَلدَتي. القَصـــدُ إذاً افْتِقــاري لِجميعِ الأسبابِ التي تَقودُ النَّاس عادَةً لِتَّعرُّف وإقامَةِ علاقاتِ صداقة.

٤٦- فلمَّا كُنَّا كِلانا غَريبَين وأَجنَبيَّين، ولَمْ يكنْ يَعرِفُ أَحدُنا الآخر، وكانتْ تَفصِلُنــا بِقوَّةٍ أُمَمٌ وجِبالٌ وتَتوسَّطُنا أنْهار، رَتَّبَ الملاكُ بتبصُّرٍ حكيمٍ إلهيٍّ هذا اللِّقاء الــذي كانَ لا بُدَّ منْ أنْ يُخلِّصَني، وقادَنا إلى مَكانٍ واحِد. لقدْ تَبصَّرَ هذا اللِّقاءَ منذُ زمنٍ بعيدٍ على ما أَظُنُّ، مُنذُ لَحظةِ ولادَتي وتَربيَتِي الأولى.

٤٧- فما هي الوَسائِلُ التي يَستَخدِمُها؟ يَلزَمُنا الوَقتُ الطَّويلُ لِشرحِها مُفصَّلاً. مع العِلمِ أنّي لو دَخلتُ في التَّفاصيلِ غيرَ مُهمِلٍ شيئاً، أو حتَّى أَهمَلتُ مُعظمَ الأحداث، فَــلا بُدَّ لي منَ التَّذكيرِ ببَعضِها وأهمِّها.

ج – في قيصريَّةِ فِلسطينَ وليسَ في البريتو

٤٨- تَلَقَّينا التَّربيةَ مِنْ أبوَينا مُنذُ الوِلادة، كانتْ عائِلَتُنا تَعيشُ في الضَّلال. لا أَعتَقِــدُ أَنَّ أَحداً كانَ يَنتَظِرُ تَحريرنا من الخَطيئَة. حتَّى أنا نَفسي، بما أَنَّني كنتُ طِفلاً صَغــيراً لا يَعقِل وخاضِعاً لأَبٍ وثَنيّ، لَمْ أَتأمَّل حُصولَ ذلِك.

٤٩- وما لَبِثتُ أنْ فَقَدتُ والِدي وتَيَتَّمت، رُبَّما كانَ ذلِكَ بدايتي في مَعرِفةِ الحَقيقة.

٥٠- حينَها، لا أَعرِفُ كيفَ، وَجَدتُ نفسيَ مُرغَماً[٢٢] من غيرِ أنْ أُريــد، علــى أَنْ أُمضي وَقتي بجانبِ الكَلِمةِ الخَلاصيّ والحَقيقيّ. أَيَّ حُكمٍ كانَ بإمكانيَ أَنْ أُعطي وأنا في الرَّابعةَ عشرةَ منْ عُمُري؟ أَعلَمُ فقط أَنَّ الكَلِمةَ المُقَدَّسة قد بدأتْ تَقطُنُ في بطريقةٍ ما. وكَما يَنمو عَقلُ النَّاسِ ويَتطوَّرُ في عُمرٍ مُعَيَّن، كَذلِكَ أنا ولأَوَّلِ مــرَّة استَقَرَّ فيَّ الكَلِمةُ الإلهيّ منذُ ذلِكَ الوَقت.

---

[٢٢] كانَ ارتِدادُ غريغوريوس داخِليّاً. فليسَ مَقبولاً من يُعطي تَفسيراً حرفيّاً لِكلِمة "مُرغَماً"، رُبَّما يَتعلَّقُ الأمرُ بضغطٍ من والِدةِ الصَّــانِعِ العَجائِبِ التي من المُحتَمل أنَّها كانت مَسيحيَّة، أو رُبَّما تأثيرُ صِهرِه رجلِ القانون هو السبب.

٥١- وإنْ لَمْ أَكُنْ أُفكِّرُ في الماضي بالسَّبب، فَالآنَ أَعْتَبِرُ تَدَاخُلَ الظُّروفِ والأَحـــداث إشارَةً غيرَ صَغيرَة سَبَقتْ وأَعدَّتْها العنايَةُ الإلَهيَّة الرَّائِعة على أَساسِ ما كنتُ عليـه منْ عُمر[٢٣].

٥٢- فَمِنْ ناحيَةٍ أولى، كانتْ جميعُ الأَفعالِ التي سَبَقتْ هذا السِّن، ثَمَرَةَ خَطأٍ ويُمكِـنُ نَسبُها لِلطُّفولةِ وقِلَّةِ الرُّشْد، ومِنْ ناحيَةٍ أُخرى، لأَنَّ الكَلِمةَ القُدُّوس قدْ تَبَنَّى نَفسَـلَ أَوشَكتْ أَنْ تُدرِك.

٥٣- لَكِنْ وإنْ أُنْعِمَ على نَفسٍ أَصبَحتْ عاقِلَةً ومُتَمرِّسةً بالكَلِمَةِ الإلهِيَّةِ النَّقيَّة، وغَـــيرِ مُفتَقِرَةٍ مِنَ الرَّهبَةِ التي تُحدِثُها الكَلِمةُ نَفسُها، فَذلِكَ لِكي يَكونَ ابْتِـــداءُ العَقـــلِ البَشَريِّ مُتَزامِناً والإلَهيِّ، أمَّا الثَّاني فَتُساعِدُه القُوَّةُ الفائِقَةُ الوَصْفِ الخاصَّةُ به، وأَمَّـا الأَوَّلُ فَقويٌّ من تِلقاءِ ذاتِه.

٥٤- عِنَدما أُفَكِّرُ في هذا يَأخُذُني تارَةً فَرحٌ، وطَوراً اضطِراب. فَأنا فَخورٌ لِبُلوغـــي إلى هُنا، إلاَّ أَنِّي أَخْشى فقدانَ هَدَفي المَرجوِّ مِنْ جَرَّاءِ اعتِباريَ أَهلاً لِمِثْلِ هذا الامْتيـــازِ الكَبير.

٥٥- فَاتَني الحَديثُ بِدونِ أَنْ أَشعُر، وتباطأتُ دونَ أَنْ أَعْلم كَيْف، وقدْ كنتُ أَرغَـــبُ في عَرضٍ مُفَصَّلٍ رائِعٍ لِمَسيرَتي بالقُربِ منْ هذا الرَّجُل. كانَ حَديثي يَتَحَـــرَّكُ أَوَّلاً مُتَّجِهاً نَحوَ الأَحداثِ كَما حَصَلَت، دونَ الادِّعاءِ طَبْعاً أَنَّه قد أَوفى المُتَوَجِّبَ عليـه مِنْ مَديحٍ وشُكْرٍ وخُشوعٍ لِذاكَ الذي سَبَقَ ورَتَّبَ هَذه الحَوادث – لا نَبغـــي أَنْ نُثيرَ انْزِعاجاً باستِخدامِنا مِثلَ هذه الكَلِمات بدونِ أَنْ نَقولَ شَيْئاً يَتَطابَقُ مَعَـــها – أَردتُ بِحَديثي[٢٤] أَنْ يكونَ سَرداً واعتِرافاً أو أَيَّ شيءٍ آخرَ لا يُمكِنُ أَنْ يَحتَـــويَ أيَّ ادِّعاء.

---

[٢٣] كانَ الرَّواقيُّون يَعتَبِرون اكتِمالَ نُموِّ ورُشدِ عَقلِ الإنسانِ في عُمرِ الرَّابِعةَ عَشْرَة.

[٢٤] تَصَرَّفنا في ترجَمَةِ هذه الجُملَةِ الأَخيرة كي يكونَ المَعنى واضِحاً.

٥٦- أَمَّا أُمّي، فَبَعدَ وَفاةِ زَوجِها، بقيتْ وَحْدَها تَعتَني بنا. وكانتْ قَدْ قَرَّرَتْ أَنْ تُرسِلَنا، بَعدَ أَن تُنهي جميعَ المَوادِّ التي تُدَرَّسُ للأَوْلاد، إلى مَدرَسَةِ مُعَلِّمٍ لِلبَلاغَة كي نَدرُسَ عِندَه. وكانَ طُموحُها أَنْ نَصِلَ يَوماً ما بَعْدَ أَنْ نَكونَ قَدْ تَمَرَّسْنا، إلى مُمارَسَةِ هذه المِهْنَة. وقَدْ فَعَلْنا ذَلِك. وجاءَ حُكمُ العَديدِ مِنَ الأَشخاصِ يُبَشِّرُ أَنَّنا خِلالَ فَتْرَةٍ قَصيرة سَنُصْبِحُ من أَساتِذَة البَلاغَة. كانَ هَذا حُكمهم عَلينا، أَمَّا فيما يَعُودُ لي، فلا أُريدُ ولا أَستَطيعُ أَنْ أَجزُمَ في أَمرٍ كَهذا.

٥٧- من جِهَةٍ أُخرى، لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ سَبَبٍ وَجيه يَجعَلُنا نَأتي هُنا إلى قَيصَرِيَّة[٢٧]. ومنْ دونِ أَنْ يَكونَ لأَقاربي أَيُّ رأيٍ في هذا الشَّأن، وحتَّى منْ دُونِ مَشيئَتي، أَتى المُعلِّمُ الإلَهيُّ الدَّائِمُ السَّهَر لِنَجدَتي.

٥٨- وذلِكَ لأَنَّ أُستاذيَ المُكَلَّف بتَلقيني اللُّغَة اللاّتينيَّة كانَ مُلِمّاً هو الآخرُ بالحُقوق[٢٨] (لَمْ يَكُنْ هَدَفي دَراسَتَها بعُمْقٍ، بل لِئلاَّ أَبْقى جاهِلاً تَماماً لها).

٥٩- فَأَلهَمَه ملاكي لِيُوجِّهَني بنَصائِحِه، فَمِلتُ لِدِراسَةِ القانون. وبقَدرِ ما كانَ المُعلِّمُ يَطْمَحُ إلى نَجاحِ مُهِمَّتِه هذه، بقَدرِ ذلِكَ كُنتُ أَستَمِعُ لَه لإسْعادِه لا شَغَفاً بالحُقوق.

٦٠- اتَّخَذَني إذاً بغَيْرَةِ تِلميذاً وبَدأَ يُلقِّنُني الدُّروس. وقَدْ قالَ مَرَّةً: إنَّ دِراسَةَ القَوانينِ كانتْ لي الزَّادَ الأَخير، فَإنْ أَرَدتَ اسْتِخدامَه كَخَطيبٍ في المَحْكَمة نَجَحتُ، أو مِنْ أَجلِ مِهنَةٍ أُخرى. وإذ بقَولِه يَتَحَقَّقُ كُلِّيّاً.

٦١- لقَدْ عَبَّرَ بهَذا الأُسلُوبِ مُضْفياً عَلى كَلِمةِ "الزَّادِ الأَخير" مَعنىً بَشَرِيّاً. أَعْتَقِدُ أَنَّ تَلَفُّظَه بهذا القَولَ لَمْ يَكُن سِوى ثَمَرَةِ وَحيٍ أَكْثَرَ مِمَّا يُمكِنُ أَنْ نَتَصَوَّر.

٦٢- لا شَكَّ أَنّي بَعدَما انْطَلَقتُ في دِراسَةِ القَوانينِ الرُّومانيَّة، عنْ طَوعٍ أو عَنْ كُرْه، وُضِعتْ قُيودُه في مِعصَمَيَّ. فَأَصْبَحَتْ مَدينَةُ بَيريتو سَبَباً حافِزاً لِسَفَري إلى هُنا، فَهي تَبعُدُ قَليلاً عن قَيْصَرِيَّة، وقد أَضْحَتْ مَركَزَ أَيِّ مَعلوماتٍ عنِ اللاّتينيَّة، واشْتَهَرَتْ كَسُدَّةٍ لِلقانونِ الرّوماني[٢٩].

---

[٢٧] لِهذا المَقطعِ عِدَّةُ تَفاسير.

[٢٨] كانتِ اللُّغةُ اللاّتينيَّةُ ضَروريَّةً في ذلِكَ العَصرِ لِكُلِّ مَنْ كانَ يَطمَحُ لِوَظيفَةٍ سياسيَّة. وفي بيروت كانتْ تُدَرَّسُ الحُقوقُ أيضاً باللاّتينيَّة.

[٢٩] اعْتُبِرتْ بيروتُ في تِلكَ العُصور مَدينةَ الشَّرائع.

٦٣- أمَّا بالنِّسبَةِ لِلرَجُلِ القِدّيسِ الحاضِرِ هُنا، فقدْ دَفَعَتْه ظُروفٌ أُخرى مِنْ مِصرَ مِنْ مَدينَةِ الإسكَندَريَّة حيثُ كانَ يَسكُن، وكأنّي بِها قادَتْه إلى هذا المَكانِ لِيَلتَقي بِنا. أنا نَفسي لا أعرِفُ أنْ أشْرَحَ أسبابَ هذه الوَقائِع وسأترُكُها جانباً.

٦٤- لَمْ يَكُنْ لَديَّ إذاً أيُّ سَبَبٍ مُلِحٍّ لِلمَجيءِ إلى هُنا أو الإرتِباطِ معَ هذا الرَّجُل، خاصَّةً أنَّه كانَ بِإمكاننا السَّفَرُ إلى روما لِدِراسةِ الحُقوق.

٦٥- فَكَيْفَ جاءَتْ هذه الفُرْصَة؟ لَقَدْ أخَذَ حاكِمُ هذا البَلَدِ أي فِلَسطين، مُصطَحِباً مَعَه بَغتَةً صِهريَ زوجَ أُختي كرَجُلِ القانون وهو لا يَزالُ كَذَلِك، لِيُساعِدَه ويُقاسِمَه أشْغالَه في حُكمِ هذا الشَّعب. فَغادَرَ على مَضَضٍ تارِكاً زَوجَتَه.

٦٦- وكانَ في نِيَّتِه أنْ يُرسِلَ سَريعاً في طَلَبِ زَوجَتِه لِيُعيدَها إلى جانِبِه وأرَدْنا أنْ نَأتيَ في الوَقْتِ ذاتِه.

٦٧- على غَيرِ استِعدادٍ إذاً، وبَينَما كُنَّا نُفكِّرُ بالسَّفَرِ إلى مَكانٍ آخر، حَضَرَ جُنديٌّ مُوكَّلٌ بِحراسَةِ أُختِنا والسَّهَرِ عَليها حتَّى تَلحقَ منْ جديدٍ بِزَوجِها، فاصْطَحَبَنا مَعَه في الطَّريق.

٦٨- اعتَبَرنا الأمرَ شَيئاً مُحبَّذاً لِصِهرِنا، ولأُختِنا خاصَّةً كي تَنصاعَ لِلسَّفَرِ مُزيَّنةً ودُونَ تَرَدُّد. وأرضَينا بِذلِكَ الأهلَ والأقارِبَ الذينَ كانوا يُقدِّرونَ قَرارَنا ويَرَونَ في ذَهابِنا إلى بيريتو لِدِراسَةِ القانونِ مَنفَعةً لا يُستَهانُ بِها.

٦٩- دَفَعَتْنا إذاً جَميعُ الأُمورِ لِلسَّفَر، فِمنْ جِهَةٍ واجِبُنا تُجاهَ أُختِنا، ومِنْ جِهةٍ أُخرى دِراستُنا الشَّخصيَّة، يُضافُ إليهِما مَجيءُ الجُندي الذي يَجبُ ألاَّ نَنسى فَضْلَه في وَضْعِه تَحتَ تَصَرُّفِنا وَسائِلَ النَّقلِ العامَّةَ بِشَكلٍ يَفوقُ المَطلوب، ووَثائِقَ سَفَرٍ لنا ولأُختِنا تَزيدُ عَمَّا هو ضَروريّ.

٧٠- كانتْ تِلكَ الأسبابَ الظَّاهِرة. أمَّا الأسبابُ الخَفيَّةُ والأصَحُّ فَهي لِقاؤُنا معَ هذا الرَّجُل، ودِراسَةُ عُلومِ الكَلِمةِ بِإشرافِه، وخلاصُ نُفوسِنا. هَذه هي الأسبابُ التي قادَتْنا إلى هُنا كعُميانٍ لا يَعرِفونَ شَيئاً، إلاَّ أنَّها آلَتْ لِخلاصِنا.

٧١- لَمْ يَكنْ هذا الجُنديُّ في الظَّاهِرِ سِوى مُرافِقٍ، أَمَّا في الواقِعِ فَكانَ السَّماويُّ مُرافقَنا في السَّفَرِ[٣٠]، ومُرشِدَنا وحارِسَنا ومَلاكَنا الذي يَحفَظُنا طولَ طَريقِ العُمْرِ، وهو الذي أَوقَفَنا بَعْدَما اجتَزنا أَماكِنَ عِدَّة، ومِنْ بَينِها بيريتو التي طالَما اعتَبَرناها الهَدَفَ الأَساسِيَّ لِسَفَرِنا، ولَمْ يَتعَبْ بِتَرتيبِ الأُمورِ وتَسخيرِ جَميعِ الوسائِلِ لِيَربُطَنا بِهذا الرَّجُلِ الذي وَجَبَ أَنْ يَكونَ لَنا عِلَّةَ الكَثيرِ مِنَ الخَيْرِ.

٧٢- وَبوصولِه إلى هُنا، أَوكَلَ المُرسَلُ الإلَهيُّ، بَعدَ أَنْ عَمِلَ كَثيراً، لِهَذا الرَّجُلِ مُهِمَّةَ العِنايةِ بِنا، وذَهَبَ رُبَّما لِيَستَريح -ومَعروفٌ أَنَّ طُغمَةَ السَّماويين لا يَعرِفُ التَّعب- ولَكِنْ لِكونِه قدْ وَضَعَنا بينَ يَدي رَجُلٍ بِالمُستَوى المَطلوبِ مِنَ التَّبَصُّرِ قادِرٍ على العِنايَةِ بِنا.

ج. السِّحْرُ غَيرُ الزَّائِلِ لِكَلِمةِ أوريجينوس

٧٣- اسْتِقْبَلَنا هذا الرَّجُلُ مُنذُ اليَومِ الأَوَّل، وَبالفِعلِ كانَ أَوَّلَ يَومٍ بِالنِّسبَةِ لي وأَهَمَّ مِنْ كُلِّ الأَيَّام. عِندَئذٍ، بَدأَتْ ولِلمرَّةِ الأُولى تُشرِقُ لي الشَمسُ الحَقيقيَّة. في البِدايةِ، كُنَّا كَحَيواناتٍ مُتَوَحِّشَة، كالأَسماكِ أو العَصافيرِ التي وَقَعتْ في الشِّباك، وتَبذِلُ قُصارى الجُهدِ لِلهَرَبِ والفِرار، راغِبةٍ في الابْتِعادِ عنْ بيريتو وحتَّى عنِ الوَطن.

٧٤- لَكِنَّه اسْتَخْدَمَ كُلَّ وَسيلَةٍ لِيُقرِّبَنا مِنه. فكانَ يَتَحَدَّثُ بِمُختَلفِ الأَحاديثِ وَيَشْرَحُ، ويُنزِلُ، كَما يَقولُ المَثَل، كافَّةَ السِّتائِرِ، واضِعاً كُلَّ إمكانِيَّتِه في الخِدْمَة.

٧٥- كانَ يَمدَحُ الفَلسَفةَ وعُشَّاقَها بِأوسَعِ المَدائِحِ قائِلاً: إنَّهم وَحدَهم يَسلكونَ حَقّاً الحياةَ التي تُناسِبُ كائِناتٍ أُنعِمَ عليها بِالعَقل، هُم الذينَ يَعرِفونَ كيفَ يَحيَون مُدرِكينَ ماهِيَّةَ أَنفُسِهم، وعَالِمينَ مُسبَقاً الخَيراتِ التي يَجبُ على المَرءِ مُلاحَقَتُها، والسَّيِّئاتِ الحَقيقيَّةِ التي عليه تَجَنُّبُها.

٧٦- كانَ يَلومُ الجَهلَ والجُهَّال، والحالُ أَنَّ كَثيرينَ مِنَ العُميانِ وغَيرِ المُدرِكينَ لِماهِيَّتِهم كالبَهائِم، يَسبَحونَ مِثلَ كائِناتٍ مَجرَّدَةٍ من العَقْل، مِنْ دونِ أَنْ يَعرِفوا التَّمييزَ بينَ الخَيرِ والشَّرّ، وحتَّى مِنْ دونِ أَنْ يُريدوا تَعلُّمَ ذِلك. يَنقَضُّونَ ويُحلِّقونَ فوقَ الشُّهرَةِ والغِنى والأَمجادِ العَامَّةِ ورَفاهِيَّةِ الجَسد، وكأَنَّ في ذِلكَ كُلَّ السَّعادة.

---

٣٠ من المُلائِم أن نَرى في التَّعبيرِ إشارةً لِلملاكِ روفائيل الذي قادَ خطواتِ طوبيَّا (طوبيَّا ٥: ٢٢).

٧٧- ولَهُم إعْجابٌ كَبيرٌ بهذه التي تُدْعَى خَيْرات، وكَذلِكَ هو الأمرُ بالنِّسبَةِ لِلمِهنِ التي يَسعَونَ لِلحُصولِ عليها، والنَّشاطاتِ التي تُخَوِّلُهم البُلوغ كالجَيشِ والمُحامَاةِ وعِلمِ القَوانين. بمِثلِ هذه المَواضيعِ، كانَ مُعلِّمُنا يَهُزُّنا في الصَّميمِ مُؤَكِّداً لنا ما كُنَّا نُظْهِرُ إهْمالَه، وهو أَهَمُّ جَميعِ الخَيرات، أَعْني به العَقْل.

٧٨- لا أَستَطيعُ إحْصاءَ عَدَدِ كَلِماتٍ مِنْ هذا النَّوعِ، أَسْمَعَنا إيَّاها في العَديدِ مِنَ الأَيَّام التي كُنَّا نَذهَبُ إليه ونَبْقى بِقُربِه، فَيَعِظُنا بأُسْلوبٍ فَلسَفي. ومُنذُ اليَومِ الأَوَّل صُعِقنا بحَديثِه الذي احتَوى مِنَ النِّعمةِ أَعذَبَها، ومِنَ الإقْناعِ قُوَّةَ إلزامِه. كُنَّا مُتَرَدِّدِينَ أو بالأَحرَى كُنَّا نَشُكُّ في ذواتِنا، فمِنْ جهةٍ أُولى لَمْ نَكُنْ بَعدُ قَدْ قَرَّرنا الغَوصَ في الفَلسَفة. ومِنْ جهةٍ ثانية، لَمْ نَكُنْ لِنَستَطيعَ الابتِعادَ عنْ هذا الرَّجُل الذي جذَبَتْنا كَلِماتُه عُنوَةً.

٧٩- كانَ يُصَرِّحُ وبحَقٍّ، أنَّه منَ المُستَحيلِ على الإنْسانِ مُمارَسَةُ أكمَلِ عِبادَةٍ (هذه التي مُنِحَتْ للإنسانِ وَحدَه دونَ سائِرِ الخلائِق، وبها يَتَشَرَّفُ ويَنالُ كَرامَة، حَكيماً كانَ أَم جاهِلاً، اللهُمَّ إلاَّ إذا فَقَدَ عَقلَه وجُنَّ) إلاَّ إذا تَفَلسَفَ.

٨٠- واستَمَرَّ على هذا النَّحوِ مُنطَلِقاً مِنْ حَديثٍ إلى آخَر، حتَّى ثَبَّتَنا أخيراً بأَساليبِه الخاليَةِ مِنَ التَّصَنُّع، فَبَدَونا كَمَرضى. وأَبقانا بِقُربِه (لا أَعرِفُ كيف)، مِنْ خِلالِ كَلِماتِه وبِفعْلِ قُوَّةٍ إلهيَّة.

٨١- وها قدْ أَصابَنا بلَدغَةِ الصَّداقةِ القاطِعَةِ والمُخترِقة، التي يَصْعُبُ نَزعُها. إنَّها لَدغَةُ لُطفِه وتَدابيرِه الحَسَنة، وكُلّ العَطفِ الذي كانَ يَظهَرُ في كَلِماتِه عِنْدَ تواجُدِه مَعَنا وتَوجيهِه الحَديثَ لَنا. لَمْ يُحاوِلْ قَطُّ خِداعَنا بأَحاديثِه أَو بشيءٍ آخَر، بل أنْ يُخلِّصَنا بأَفضَلِ نيَّةِ حُبٍّ وتَسامُح، وأنْ يُقرِّبَنا منَ الحَسَناتِ التي تُقَدِّمُها الفَلسفة.

٨٢- أَضِفْ إلى ذلِك خُصوصاً، أنَّ الأُلوهَة قدْ مَنَحَتْه أكثَرَ مِنَ الباقين، أَو ربَّما أكثَرَ منْ جَميعِ رِجالِ عَصْرِه، أَنْ يَكونَ شَريكَ مُعَلِّمِ التَّقوى الكَلِمةِ المُخلِّصِ الذي يَزورُ الكَثيرينَ منَ الأشخاصِ ويَغلِبُ كُلَّ الذينَ يُصادِفُهم. لأنَّه هو كانَ، وسَيكونُ مِلكَ كلِّ شيء. لَكِنَّه يَبقى مُختَبِئاً، لا يَستَطيعُ مُعظَمُ النَّاس إنِ

استَخدَموا أو لَمْ يَستَخدِموا، كُلَّ ما يَعرِفونَه عنه، لِيُجيبوا في حالِ سُئِلوا، بِشَيءٍ واضِحٍ عنه.

٨٣- ها هي الشَّرارَةُ مَرمِيَّةٌ في وَسَطِ نُفوسِنا، تُشعِلُ وتُلهِبُ فينا مِنْ جِهَةٍ، حُبَّ الكَلِمةِ القُدُّوسِ المَحبوبِ لِلغايَة، الذي بِجَمالِه الفائِقِ الوَصْف يَجتَذِبُ نحوه جميعَ النَّاس، ومِنْ أُخرى، حُبَّ هذا الرَّجُلِ صَديقِ الكَلِمةِ والنَّاطِقِ باسمِه.

٨٤- ولَمَّا جُرِحتُ بِعُمقِ هذا الحُبّ[٣١]، أسْلَمتُ نفسي لِتَقتَنِعَ بِإهْمالِ كافَّةِ الأعمالِ والدِّراساتِ التي كانتْ تَبدو مُلائِمةً لَنا، ومِنْ بَينِها دِراسة القَوانينِ الجَميلةِ نَفسِها، ووَطَني وأَهلي وأَقاربي الذينَ مِنْ أَجلِهِم جَميعاً كُنَّا قدْ غادَرنا بَلَدَنا. شَيءٌ واحِدٌ غَدا لِعينيَّ غالِياً ومَحبوباً أَ لا وهو الفَلسَفةُ ومُرشِدُها، هذا الرَّجُلُ القِدّيس.

٨٥- "وتَعَلَّقتْ روحُ ناتان بِداود"[٣٢]. قَرَأتُ فيما بعدُ هذه الجُملَةَ في الكِتابِ المُقَدَّس، إلاَّ أَنَّه سَبَقَ لي واختَبَرتُ هذا الشُّعورَ نَفسَه بِشكلٍ واضِحٍ كما هو مَكتوب، وهذا بالتَّأكيدِ وحيٌ إلهيٌّ واضِح.

٨٦- لَمْ يَكُنْ ناتان قدْ تَعلَّقَ بِداودَ فقطْ، بل لَقَدْ أَصبَحَ هذا الأخيرُ جزءاً مِنه تُسيطِرُ عليه روحُه. ولو انفَصَلتِ الأشياءُ الظَّاهِرَةُ والمَرئِيَّة التي قَدْ يُرغَمُ عليها المَرءُ بِأَيِّ طَريقَة، فلا يُمْكِنُ أبداً أَنْ يَفصِلَه شَيءٌ رُغماً عنْ إرادَتِه.

٨٧- أَمَّا النَّفْسُ فبِكَونِها كائِناً حُراً، لا يُمكنُ الاغلاقُ عَليها بأيِّ وَسيلَةٍ، حتَّى لو أَرَدْنا الاحتِفاظَ بِها سَجينَةً في حُجْرَةٍ صَغيرَة، فَهي بِحَسَبِ جَوهَرِها تُوجَدُ لِتَكونَ عَقلاً، وقد تَبدو لَكَ أَيضاً وكَأَنَّها في حُجرَةٍ صَغيرَة، فَتَتَصَوَّرُها ثانَويَّة[٣٣]، أَمَّا ذلِكَ فلا يَمنَعُها مِنْ أَنْ تَكونَ تَماماً حيثُ تُريدُ أَنْ تَكون. ومِنَ المَنطقيِّ أَنْ نَعتَقِدَ بِعَدَمِ

---

[٣١] لا يَختَلِفُ تَعبيرُ غريغوريوس عن مَحبَّتِه لِلكَلمةِ الإلهي ولِمُعلِّمِه هُنا، عَمَّا هو وارِدٌ في سِفرِ نَشيدِ الأناشيد، حيثُ نَرى العَروس وقَدْ جُرِحتْ بِهوى عَريسِها (٢: ٥).

[٣٢] ١ صموئيل ١٨: ١. يَستَشهِدُ غريغوريوس بِهذا النَّص، وكأَنّي به يَعكِسُ أُسلوبَ أوريجينوس في تَفسيرِه الكِتابَ المُقَدَّس وتَحليلِه الدَّقيقِ لِكُلِّ كَلِمَةٍ فيه.

[٣٣] مِنَ الواضِحِ أَنْ نَرى المُقارَنَة النَّقيدَة بينَ واقِعِ الأشياءِ وظواهِرِها، أيّ بِمَعنى آخر: العَقل قَبلَ وجودِه، وعِلَّةُ وجودِ العَقل. تَذكُرُ حاشيَةُ التَّرجَمةِ الفَرَنسيَّة حول هذه الفِكرة: أَنَّ الفِكرَ (العقل) هو الجُزءُ الأسمى مِنَ النَّفس، والذي قَبلَ وجودِه (في الإنسان) كانَ نَفساً مُجرَّدَة. لِمَزيدٍ من الاطِّلاعِ في هذا الأمر، يَجبُ العَودةِ إلى الفلسفةِ الرِّواقيَّة.

قُدرَتِها على البَقاءِ إلاَّ هُناك أو علىمَقرُبَةٍ مِنَ المَكانِ الذي تُديرُ فيه أَعمالَها الخاصَّة بطبيعَتِها.

٨٨. أَلَعَلَّ ما حَدَثَ لي إذاً لَمْ أجدْ له التَّعبيرَ الواضِحَ في جُملَة: "وَتَعلَّقَتْ روحُ ناتان بروحِ دواود"؟ وقد قُلتُ ذلِكَ قَبلاً، لَيسَ بِمَقدورِ النَّفسِ أَنْ تُكرَهَ على الانْفِصالِ رُغماً عَنها، ولَنْ تُوافِقَ على ذلِكَ بسُهولَةٍ بِملءِ إرادَتِها.

٨٩. لا أَعتَقِدُ أَنَّ إنْساناً مُتَقلِّبَ المَزاجِ ومُتَغيِّرَ الإرادَةِ وقَليلَ الجُودَة، يقدِرُ أَنْ يَحُلَّ رَوابطَ صَداقَةٍ مُقَدَّسةٍ كَهذه. كَما أَنَّه لَمْ يَكُنْ يَملكُ في الأَساسِ ما يَشُدُّها به، بلْ كانَتْ عَظَمةُ الدَّائِمِ وغَيرِ المُتحوِّلِ هي التي شَدَّتْ هذه الرِّباطاتِ والعُقَدَ المُقَدَّسة. فَهكذا إذاً لَمْ يُعلِّق الكَلِمةُ الإلهيُّ نَفسَ داودَ بنَفسِ ناتان.

٩٠. بل بالعَكس، تعَلَّقتْ نَفسُ الإنسانِ الأَسوأ بنَفسِ داود. لأَنَّ الإنسانَ الأَفضلَ المُكتَفيَ بذاتِه، لا يُمكِنُ أنْ يَختارَ التَعلُّقَ بِمنْ هو أَقلُّ جودَةً مِنه. بَيدَ أنَّ هذا، ولِكونه مُحتاجاً لِدَعمِ مَنْ هو أَفضلُ مِنه، استَلزَمَه البَقاءُ مُتَعلِّقاً به، خُصوصاً بَعدَما ارتَبطَ به مَرَّة. هَكذا، لَنْ يَتَكَبَّدَ الأَوَّلُ وغيرُ المُتَحرِّكِ أَيَّ خِسارَةٍ مِنْ جرَّاءِ تَقرُّبِه مِمَّن هو أسوأ. أَمَّا الثَّاني، والفَوضَويُّ بالطَّبيعَة، فَباتِّصالِه ولَو مَرَّةً، معَ الأَفضَلِ مِنه، شَرْطَ أَلاَّ يُسَبِّبَ له أَيَّ خِسارَة، لا بُدَّ أَنْ تُسيطِرَ عليه في النِّهاية، مَجموعُ الضُّغوطِ النَّاتِجَةِ منْ ارتِباطِه بالأَفضَلِ مِنه.

٩١. لِذلِكَ، يَعودُ فَضلُ شَدِّ أَوصالِ العَلاقَةِ للأَسْمى، أَمَّا التَعلُّقُ فللأَدْنى، لِكي لا تَبقَى بطَريقةٍ ما، إمكانيَّةٌ لِفَكِّ الرَّوابط.

٩٢. بِمثلِ هذه الرُّبُطِ الضَّاغِطة يُمسكُ بنا داودُ هذا[٣٤]. ولو أَردنا، فَلَن نَتَمَكَّنَ مِنَ التَّحرُّرِ مِنَ الرُّبُط، ولو ابتَعَدنا، فَلَنْ يَتركَ نُفوسَنا، بلْ يُمسكُ بِها ويُبقيها مُربوطَةً كما هي حالُها معَ النَّص الإلَهي.

ح. يَجبُ عَدَمُ التَّوَقُّف عِندَ ظَواهِرِ الأَشياءِ بلْ يَجبُ البَحْث في جَواهِرِها

٩٣- هَكذا إذاً، بَعدَما استَأثَرَ بنا، ودَرسَ بشكلٍ كامِلٍ إمكانيَّاتِنا، وتَوَصَّلَ إلى نَتيجَةٍ جَيِّدة، -وكُنَّا قد قرَّرنا البَقاء-، بَدأَ بالعَملِ كَحارثٍ جَيِّدٍ يَحرثُ أَرضاً بائِرَةً وغَيرَ

[٣٤] المَقصودُ هُنا هو أوريجينوس.

مُخصبَة، بلْ قَذرَةً ومَحروقَةً وكَثيرَةَ الحِجارَةِ والرَّمل، لكِنَّها لَيستْ عَقيمَةً بالكُليَّة أو سيِّئَةً بطبيعَتِها، بل بالعَكس، مُمتازَةً حتَّى لو كانتْ مُهمَلَةً بدونِ فِلاحَة، ووَعْرَةً مَليئَة بالأشواكِ والعُلَّيق، ويَصعُبُ فلحُها.

٩٤- (بَدأً بالعَمَلِ) كَبُستانيٍّ يُهجِّنُ نَبتَةً بَريَّةً لا تُعطي ثَمراً جيِّداً، لَكِنَّها لنْ تَبقى عَقيمَةً بالكُليَّة حينَ، يَشُقُّ وَسطَها ويُطَعِّمُها حَسبَ فَنِّه، بِفرعٍ مَزروع، لِتُثمِرَ لاحِقاً وتَبلُغَ الطُّعمَ فَينمو الغصْنانُ مَعاً في نَبتَةٍ واحِدَة. هكذا، يُمكنُنا رُؤيَةَ شَجَرَةٍ مُفرِعَةٍ مِنْ مَزجِ هذا نوعُه، شَجَرَةٍ فاسِدَةٍ بلا شَكّ، إنَّما مُخصِبَةٍ مولودَةٍ مِنْ شَجَرَةٍ عَقيمَة، تحملُ جُذورُها[٣٥] ثِمارَ الزَّيتونَةِ المَزروعَةِ على جُذورِ الزَّيتونَةِ البَريَّة.

٩٥- هكذا تَقريباً، كانتْ حالَتُنا عِندَما كانَ يأخُذُنا إلى جانبِه كَالفَلاح، ويُحيطُنا بِعِنايَةِ اهتِمامِه بدونِ أنْ يَكتَفي بمُلاحَظَةِ ما يُلاحِظُه العُموم، وما يَظهَرُ لِلخارِج. بل يَنبُشُ عُمقَ أعْماقِنا مُختَبِراً مُستَجوِباً ومُقتَرِحاً ومُصغياً لأجوبَتِنا. وفي حالِ أنَّه لاحَظَ فينا شَيئاً إيجابيّاً وصالِحاً وفعَّالاً،

٩٦- أخذَ يَنقُبُ كُلَّ شيءٍ مُجدَّداً، يُديرُ ويَسقي ويُحَرِّك، واضِعاً كُلَّ فَنِّه وعِنايَتِه لِلعَمَل. وبَينَما كانتْ نُفوسُنا المُتخبِّطة، تُنتِجُ الشَّوكَ والعُلَّيق[٣٦] والأعشابَ وسائِرَ أصنافِ النَّباتاتِ البَريَّة، وتُقدِّمُه غَزيراً بِعَشوائيَّتِها وتَهوُّرِها، كانَ هو يَقطَعُ ويَنزَعُ كُلَّ شيءٍ مِنْ خِلالِ نَقضِه ومَنعِه.

٩٧- هَكذا كانَ يُضَيِّقُ عَلَينا الحِصار، بطريقةٍ تُشبِه السُّقراطيَّة[٣٧]، مُعثِّراً إيَّانا بكِلماتِه، ومتى رأَينا نَقفزُ خارجَ الطَّريقِ جامِحينَ بالكامِلِ كالأحصِنةِ البَريَّة، وراكِضينَ بدونِ تَبصُّرٍ في كُلِّ صَوب، عِندئِذٍ يُعيدُنا إليه، بالإقناعِ والإلزام، فَنُصبِحُ هادِئينَ وكأنَّ لَسعَةً أصابَتْ أفواهَنا.

---

[٣٥] تَذكيرٌ برِسالة بولس إلى أهلِ روما ١١: ١٧-٢٤.

[٣٦] راجِع سفر التَّكوين ٣: ١٨.

[٣٧] كانَ سُقراط كما هو مَعروف، يُظهِرُ ذاتَه جاهِلاً، ويَطرَحُ على مُحاوريه أسئِلةٍ مُحرِجَة، ثُمَّ يُغرِبلُ الأجوبَةَ المُعطاة، فَيُفاجِئُ سامِعيه. وبِهذا الأسلوبِ كانَ يُقرِّبُهم منَ الحقيقة.

٩٨- لَمْ يَكُنْ في البدايةِ غيرَ مُؤلِمٍ ما كُنَّا نتحَمَّلُ مِنْ أحاديثِه، بسببِ عدمِ اعتيادِنا بعدُ أو تَمَرُّسِنا على اتِّباعِ العَقل، ورُغمَ ذلِكَ كانَ يُنقِّينا. وبَعدَما هيَّأنا جيّداً، وجَعلَنا قادرينَ على استِقبالِ كلِماتِ الحَقيقة،

٩٩- رَشَّ بيَدينِ مَليئتَينِ البُذورَ المُزمِعَةَ أنْ تُعطي بَراعِمَها ، كأنَّما في أرضٍ مَشغولَةٍ جيّداً ومُنعَّمَة. وفي الوقتِ الصَّحيحِ كانَ يَنتَظِرُ البذرَةَ المَزروعَة، وفي الوقتِ المُناسبِ كانَ يَشرَحُ بلباقَةٍ وبالكلِماتِ المُلائِمة كُلَّ نَشاط، أكثرَ منْ من قيامِه بأيِّ عَملٍ آخر.

١٠٠- كانَ يُصفّي بكلِماتِه النّاعِمة، وأساليبِه المَدموغة بالعَواطِفِ العَقليَّة، كُلَّ ما كانَ في نُفوسُنا ضَعيفاً ونَغلاً بطَبيعتِه، أو مِنْ جَرّاءِ الإفراطِ في تَناولِ الأطعِمةِ الجَسَديَّة.

١٠١- أمَّا هذه الكَلِمات، فكانتْ في البدايةِ بَسيطَة، وما لَبِثَتْ أنْ تَطوَّرت تِباعاً، وتَعَدَّدَتْ أشكالُها لِتُشكِّلَ لحمَةً مِنَ المُستحيلِ تُمزيقُها. كانَتْ تَهُزُّنا، نحنُ العائِشينَ كَفَريسَةٍ لِلنُّعاس، وتُعلِّمُنا التَّمَرُّسَ بعنايَةٍ في المَواضيعِ المَطروحَةِ بدونِ أنْ نَتسَكَّعَ خارِجَ الحِصَّةِ (ساعة الدَّرس) بحُجَّةِ طولِها أو دِقَّتِها.

١٠٢- وبما أنَّنا كُنَّا نُبدي مُوافَقَتَنا بطِيبَةِ خاطِر، على أيَّةِ مَواضيعَ تُطرَح، فقدْ حاولَ دائِماً إصْلاحَ ما فينا مِنْ تَهوُّر وطَيش، بأحاديثِه التي أشرنا إليها وبغَيرِها، بنَبَراتٍ مُختلِفَة. وبالفِعلِ عَوَّدَنا من خِلالِ عِدَّةِ أشكالٍ فَلسفيَّة، ألاَّ نُبدي بطَيشٍ وعَمى مُوافَقَتَنا على مَوضوعٍ أو رَفضَنا لَه. لِذلكَ كانَ يُعلِّمُنا ألاَّ نَكتَفي في بَحثِنا على مَحضِ الظَّواهِر.

١٠٣- وبحُجَّةِ أنَّها نَفسيَّةٌ ورائِعة، فقد حَكَمنا على الكَثيرِ مِنَ الآراءِ التي بَدَتْ لأنظارِنا أحاديثَ مَعقولَةً في الظَّاهِر، وكأنَّها حَقيقِيَّة، بَينما هي في الواقِعِ مُزوَّرَةٌ وخادِعة، وقدْ نَجَحَتْ بامتِلاكِنا وطَمأنَتِنا باحتِمالِ صِحَّتِها. لِكِنْ لَمْ يَمضِ طَويلُ الوَقتِ حتَّى استَنتَجنا زَيفَها وعدَمَ قابليَّتِها لِلتَّصديق، وإذ بها نُسخَةٌ فاشِلَةٌ عنِ الحَقيقَة. هكذا، كُنَّا مُضحِكينَ بإعطائِنا المُوافَقَةَ لِطروحاتٍ لَمْ يكن منَ الواجبِ إعطاءها مُطلَقاً.

١٠٤- وفَعَلنا العَكس تُجاهَ أراءٍ أُخرى جديَّةٍ وخاليَةٍ مِنَ الإدِّعاء، إنَّما مُعبِّرٍ عَنها بكلِماتٍ لا تُوحي بالثِّقَة، وتَبدو غَريبَة غيرَ جَديرَةٍ بالتَّصديق، فَنَبذناها نَبذَ الأكاذيب. وهكذا طُعِنتْ ظُلْماً. بَيدَ أنَّنا فيما بَعدُ، باشَرنا ببَحثٍ يَقِظٍ وفَكَّرنا بها جَيِّداً، فَلاحَظنا

صِحَّةَ تِلكَ الآراءِ بالكامِلِ، في حينِ كُنَّا إلى ذلكَ الوَقتِ نَظُنُّها خاطِئَـــةً ومُســتَحِقَّةَ الرَّفضِ.

١٠٥- أُكَرِّرُ، كانَ يُعلِّمُنا عدَمَ الاكتِفاءِ بالخارِجِ والظَّواهِرِ التي هي في بَعضِ الأَحيـانِ فاشِلةٌ ومُزوَّرَة، بلْ أَنْ نَبحثَ بتَدقيقٍ في جَوهرِ الأشياء. وأَنْ نَطرُق حولَ كُلِّ واحِـدَةٍ منها لِنُدرِكَ جَمالَ الصَّوت، وعِندَها فقط، نُصادِقُ على الخارِجِ بَعدَ أَنْ نَكونَ قدْ تَنبَّهنا له بالكامِلِ.

١٠٦- هَكذا إذاً، كانَ يُرَبِّي عَقليّاً عَقلُنا كي يُقيِّمَ الأُسلوبَ الـذي يَجـبُ التَّعبـيرُ والكَلامُ فيه.

١٠٧- ولم يَكُن يَتَلمَذُ (عقلُنا) على الحُكمِ اللُّغويِّ بحَسبِ أُسلوبٍ أَفضلِ أَســاتِذَةِ البَلاغة، أَيِّ مَعرِفَةٍ إذا ما كانَتْ اللُّغَةُ يونانيَّةً صرفَة أو بَربَريَّة، أَو المادَّةُ الدِّراسيَّةُ فَقـيرَةً أو غيرَ مُفيدَة.

١٠٨- بلْ بالعَكس، أَيّ أَلاَّ يُخدَعَ عَقلُنا. وهذا أَمرٌ لا بُدَّ مِنه لِليونـانيينَ والـبرابِرَة، لِلحُكماءِ والجُهلاء. ولِكي لا يُصبِحَ حَديثي مُملاً مِنْ جرَّاءِ استِرسالي بِفُنونٍ ونَشاطات جميعِ النَّاسِ وأَيِّ حَياةٍ اختاروا، أَقولُ، لا بُدَّ لأَيِّ شَخصٍ يتَكلَّمُ في مَوضوعٍ ما، منْ أَنْ يَسعىَ لِعدَمِ اللَّفِّ والدَّوران في حَديثِه.

خ- يُسَهِّلُ الوصولَ إلى السَّماء

١٠٩- ولَمْ يَكنُ هذا الجُزءُ من روحِنا مُتَتَلمِذاً فقطْ بما أَصلَحَه فيه عِلمُ الجَدَل. بلْ مُنـذُ اللَّحظةِ التي دُهِشنا فيها كحَيواناتٍ غَيرِ عاقِلَة، بعَظَمةِ وروعَةِ المَخلوقِ وهَيكَلِيَّتِه الحَكيمـة، والذُّهولِ الذي واكبَ الدَّهشَة، أَصابَتنا رَهْبَةٌ مِنْ جَرَّاءِ عَدَمِ مَقدِرَتِنا على التَّفكـيرِ في أَيِّ حَدَث، وطالَتْ الجِزءَ الأَدنى منْ نَفسِنا.

١١٠- أَمَّا هو، فَكانَ يُحرِّكُ هذا الجزءَ الضَّعيفِ مِنْ رُوحِنا مُثقِّفاً إيَّاه بعُلـومٍ أُخـرى، ويَشرَحُ كُلَّ كائِنٍ مِنَ الكائِنات، مُجَزِّأً بأُسلوبٍ لَبِقٍ لِلغاية عناصِرَه الأُولى، ومِـنْ ثَـمَّ يَتَحَدَّثُ عن طَبيعةِ كُلِّ شيءٍ وكُلِّ جزء، وعَنِ التَّبَدُّلاتِ والتَّحَوُّلاتِ الحاصِلَة في عَنـاصِرِ العالَم.

١١١- إلى أنْ يُحوِّلَ، بفَضلِ تعاليمِه الدَّقيقَة، وبَراهينِه الشَّخصيَّةِ مِنها والمُكتَسَبة عنْ تَناغُمِ الكَونِ والطَّبيعَةِ المَحضَة، والرَّهَبَةِ الكامِنةِ في نفسِنا العاقِلَة مِنْ جَرَّاءِ الأشياءِ غَيرِ المَعقولَة.

١١٢- عِلمٌ سامٍ وإلَهيٌّ كَهذا، هو مِنْ اختِصاصِ عِلمِ الفيزياءِ الذي يَرغَبُه الجَميع.

١١٣- وماذا أقولُ عنْ باقي العُلومِ المُقدَّسَة، كالجَبرِ الذي لا يَغلَطُ والعَزيزِ على الجَميع، وعِلمِ الفَلَكِ الذي يَسبَحُ في السَّماوات؟ كانَ يَغرسُ في نُفوسِنا كُلَّ واحِدةٍ مِنْ هذه العُلوم، لا أعرِفُ إنْ كانَ يَفعَلُ ذلِكَ مُلَقِّناً إيَّاه أو مُستَعيداً له في عُقولِنا، أو بطُرُقٍ أُخرى.

١١٤- كانَ يَضَعُ عِلمَ الجَبرِ الذي لا يَتَزَعزَع، أساساً أميناً، وبعِلمِ الفَلَكِ كانَ يَرفَعُنا إلى العَلاءِ كأنَّما على سُلَّم[٣٨] طَويلٍ يَبلُغُ الجَلَد. باختِصار، لَقدْ جَعَلَنا نَلِجُ السَّماءِ بواسِطَةِ هذا وذاكَ العِلم.

د- الفَضائِلُ الأخلاقيَّةُ الإلَهيَّة

١١٥- أمَّا هَدَفُه الأهمّ، فهي الفَضائِلُ الأخلاقيَّةُ الإلَهيَّةُ التي تَجلُبُ وَحدَها الهُدوءَ والتَّوازُنَ لِلدَّوافِعِ النَّفسيَّة. هذه الفَضائِلُ التي طالَما سَعى إليها كُلُّ الفَلاسِفة، سَعيَهم لِسَهلٍ غَنيٍّ يَقطُفونَ فيه مِنْ كُلِّ العُلومِ ثِماراً غَنيَّةَ العَصير، مِنَ الفَلسَفَةِ العُليا خصوصاً.

١١٦- أرادَ حَقّاً أنْ يَعصِمَنا مِنَ الشَّجَنِ والأَلَمِ النَّابِعَين مِنْ جميعِ أنواعِ الشُّرورِ بدونِ اسْتِثناء. أرادَنا مُنَظَّمينَ ومُتوازِنينَ وطُوباويين ومُشابِهينَ فِعلاً لله.

١١٧- هذا هو الهَدَفُ الذي سَعى لِبُلوغِه، مِنْ خِلالِ أحاديثَ مُوجَّهَةٍ ومُقنِعَةٍ وحَكيمة، لَكِنَّها مُلزِمَةٌ أيضاً، عنْ أخلاقِنا ومَسيرَةِ حياتِنا.

١١٨- وما كانَ بالكَلامِ فقطْ، بلْ بالأفعالِ يُروِّضُ الغَرائِزَ التي تَظهَر،واضِعاً إيَّانا في حالَةِ ثيوريَّا[٣٩] (بَحث، تأمُّل) وتَفكيرٍ[٤٠] عنِ دوافِعَ وعَواطِفِ النَّفس، واستِبطانٍ يَستَطيعُ الروحُ مِنْ خِلالِه أنْ يَعي ذاتَه ويُصَحِّحَ النَّشاز الذي تَصُبُّ فيه، ويَتَحوَّلُ تَدريجيّاً مِنَ حالَةِ الفَوضى التي يَتَخبَّطُ فيها، إلى أُخرى رَزينَةٍ ومُنَظَّمَة.

---

[٣٨] يُلَمِّحُ إلى سُلَّمِ يَعقوب في سفرِ التَّكوين ٢٨: ١٢.

[٣٩] في النَّص: θεωρια وتَعني تأمُّلُ الله العَقليّ (منَ اليونانيَّة θεωρεω: نَظَرَ في العُمق).

[٤٠] في النَّص κατανοησει من فعل κατανοεω وتَعني نَظَرِ بانتِباه، راقَبَ، لاحَظَ.

١١٩- فَالنَّفسُ إذاً بِتَأَمُّلِها ذاتَها كما في مِرآة، تَرى أُصولَ وجُذورَ الشرِّ والأُمورَ غَيرِ العَقلانيَّة التي، مِنها تَثورُ عَلينا الأَهواءُ الهَوجاء بِفِرعَيها: السَّامي العَقلانيِّ أَوَّلاً، والمُسيطِرِ من فَوق الذي يُبقيها مَحجوزَةً داخِلَ "أناها" مَحرومَةً مِنَ الأَهواء،

١٢٠- ومِنْ ثَمَّ، بَعدَ أنْ تَكونَ قد فَكَّرَت بَينَها وبينَ ذاتِها جَيّداً، تُبعِدُ وتَطرُدُ الشُّرورَ التي تَختَبِئُ في طَبَقَتِها الدَاخِلِيَّة، والتي تُضايِقُنا وتُنهِكُنا بِسَبَبِ ما تَخلُقُه مِنْ فوضى، لا بلْ تَخنُقُنا بِدناءَتنا وهي مُسَبِّبَتُها. إضافَةً لِجَميعِ أَنواعِ الشُّرورِ التي تَصحَبُ هذه الأَهواء، كاللَّذاتِ والشَّهواتِ والأَشجانِ والمَخاوف. هكذا تُناضِلُ النَّفسُ ضَدَّ هذه كُلِّها، مُنذُ اللَّحظةِ الأُولى لاستيقاظِها وبُزوغِها، لِتَمنَعَها مِنْ أَقلِّ نُموٍّ، وتُحَطِّمُها.

١٢١- وبالعَكسِ تُغذّي وتَحمي الخَيراتِ التي تَنتُجُ منَ الجِزءِ العاقِلِ، مُرتَفِعَةً بِها بِحُبٍّ مُنذُ اللَّحظةِ الأولى لِظُهورِها، وحافِظَةً إيَّاها بِعنايةٍ إلى أَنْ تَبلُغَ اكتِمالَها.

١٢٢- عِندئِذٍ فقط، (كما كانَ يُعلِّمُنا)، تَتَأَصَّلُ في الرُّوحِ الفَضائِلُ الإلَهيَّةُ: الفطنَة التي تَعرِفُ أَنْ تَحكُمَ بِذاتِها ولِذاتِها مُباشَرَةً على الدِفاعاتِ النَّفس، إنْ وَجدتْ فيها، بِحَسَبِ ذَلِكَ العِلمِ، عِلمِ الحسناتِ والسَّيِّئاتِ الخارِجيَّة. والاعتِدالُ الذي يَعرِفُ بِدِقَّةٍ أَنْ يَختارَ بينَ الاندفاعاتِ مُنذُ لَحظةِ بُزوغِها. والعَدلُ الذي يُعطي لِكُلٍّ منها ما تَستَحِقُّه. والقُوَّةُ التي تُحافِظُ على كُلِّ هذه الفضائِل.

١٢٣- لَمْ يَكُنْ بِالتَّأكيدِ، يَجعَلُنا نَعتادُ فقطْ على سَماعِ كلِماتٍ حولَ كونِ الفِطنَة عِلمِ الحسناتِ والسَّيِّئات، عِلمِ ما يَجبُ فِعلُه وما لا يَجب. فَهُنا يكونُ التَّعليمُ باطِلاً وغيرَ مُفيد، إذا لَمْ تَقتَرِنِ الكَلِمةُ بالفِعل. ولا يَكونُ ذَلِكَ فِطنَةً إذا لَمْ يَقُمْ بما يَجبُ عليه فِعلُه، ونزعَ منَ الأَشياءِ ما يَجبُ نزعُه، ولا يَكونُ ذَلِكَ فِطنَةً إن اكتَفى بإعطاءِ مَعرِفَةٍ مَحضٍ نَظَرِيَّة لأُناسٍ يَملكونَها بِذاتِهم، (الذين على كُلٍّ لَيسوا بِقلائِل).

١٢٤- أَمَّا بالنِّسبَةِ لِفَضيلةِ الاعتِدال، فَلَمْ يَكُنْ يَقولُ بأَنَّها فقطْ عِلمُ ما يَجبُ مَعرِفَتُه أو ما لا يَجب. فَالفَلاسِفةُ الآخرونَ، -حَديثو العَهد، رُغمَ حَزمِهم وامتِلاكهم سُلطَةَ الكَلام، وإثارَتِهم لِلإعجاب-، عندَما يُبرهِنونَ على تَساوي فَضيلَةِ الله والإنسان، وأَنَّ الحَكيمَ في العالَمِ يتَعادَلُ في الحِكمةِ معَ الأُلوهَة، يَظُنّونَ هم أَنفُسُهم غَير عارِفينَ تَطبيقَ الفِطنَة لِجَعلِنا نُمارِسُ أَعمالَهم، أو لِنختارَ وِفقَ مَذهَبِهم.

١٢٥- كذلِكَ هو الأمرُ بالنِّسبَةِ لِفَضيلَتَيِّ العَدل والقُوَّة.

١٢٦- أَمَّا هو، فلَمْ يَكنْ يَتحدَّثُ مِثْلَهم عن عِلمِ الفَضائِل، بلْ كانَ يُحَرِّضُنا أَكثرَ على العَمل، مُتَمِّماً ذَلِكَ بالتَّصرُّفاتِ أَكثرَ مِنَ الكَلام.

ذ- مَديحٌ يَعكِسُ حَقيقَة

١٢٧- أَتَمَنَّى على فلاسِفَةِ اليومِ الذينَ أَعرِفُهم شخصيًّا أو أَسمَعُ عَنهم، وعلى سائِرِ الرِّجال، ألاَّ يُظهِروا غَضَباً لِما أَنا آتٍ على قَولِه. وألاَّ يَفتَرِضَ أَحدٌ أَنّي أَتَكلَّمُ بِسَبَبِ مَحبَّتي لِهذا الشَّخصِ أو لِحقدي على الفَلاسِفَةِ الآخرين.

١٢٨- أُريدُ فوقَ كُلِّ اعتِبارٍ مُصادَقَتَهم لِنُضجِهم الذي يُبرهِنونَ عنه، وأَرغَبُ بِمَدحِهم بِنَفسي، وأَنْ أَسمَعَ آخرينَ يَمدَحونَهم بِأَعظَمِ المَدائِح. إلاَّ أَنَّ الأَوضاعَ قدْ وَصَلتْ عندَ الجَميعِ إلى حَدِّ الشَّتائِمِ بِمُجَرَّدِ ذِكرِ الفَلسَفة. أَضِفْ إلى ذلِكَ، أَيَعقِلُ أَنْ أُفَضِّلَ البَقاءَ جاهِلاً على تَلقُّنِ المَوادِ التي يُعلِّمُهما هؤلاءِ الفَلاسِفة؟ وأنا مُقتَنِعٌ بِأَنَّها ستُفيدُني في علاقَتي مَعهم لِما تَبقَّى مِنْ عُمري، رُبَّما سَيَصُحُّ أَنْ أَعرِفَ ذاتي معرِفَةً أَفضَل.

١٢٩- على أَيَّةِ حال. لَنْ يَعتَقِدَ أَحدٌ أَنّي مَدفوعٌ في كلامي مِنْ رَغبَةِ مَدحِ هذا الرَّجُلِ فقط، أو بالعَكس، مِنْ شُعورٍ مُعاكِسٍ تُجاهَ فلاسِفَةٍ آخَرين. فَليَقتَنِع أَيّاً منهم، أَنّا وخَوفاً مِنَ أَنْ نَظهَرَ مُتَملِّقين، سَنَقولُ أَشياءَ أَدنى مِمَّا هي عليه أَعمالُه.

١٣٠- ولنْ نُفتِّشَ عنِ الأَفعالِ والأَسماءِ والفُرَصِ المُتقَنَةِ لِنَمدَح. حَتَّى أَثناءَ فُتوَّتي عندَما كُنتُ تِلميذاً أَدرُسُ عِلمَ البلاغَة، كنتُ أَتجَنَّبُ تَعظيمَ أَحدٍ ما لَمْ يَتطابَقِ المَديحُ معَ الحَقيقة.

١٣١- بالنَّتيجَةِ، لا أَرى ضَروريًّا الآنَ أَيضاً، تَوجيهَ المَدائِحِ لِهذا الشَّخصِ انطِلاقاً مِنْ ذَمِّ الآخرين، ولا مُقارَنَةَ الحَياةِ الطُّوباويَّةِ معَ الرَّذائِلِ هُنا وهُناك لِلوصولِ إلى أَكبرِ مَديح، فهذا يَعني أَنْ أَتَكلَّم عنه بِأَسْوأِ أُسلوب، فَنحنُ أَبعدُ ما يَكونُ عنْ هذه النُّقطة.

١٣٢- لكِنَّني سأَعرِضُ خُبُراتي، بَعيداً عن أَيِّ مُقارَنَةٍ أَو ذَرائِع.

ر- الفِطنَة البَشَريَّة والفِطنَة الإلهيَّة

١٣٣- هو الوَحيدُ والأوَّلُ الذي أقنَعَني بالتَّكرُّسِ لِلفَلسَفَةِ اليونانيَّة مُغرياً إيَّايَ بسلوكِه الحَياتيّ، وداعِياً إيَّاي لِسماعِ العِلمِ الأخلاقيِّ وتَطبيقِه بجِد.

١٣٤- فالفَلاسِفةُ الآخرونَ لَنْ يُدخِلوني البتَّة في مِثلِ هذا الدَّرس. أقولُ وأُضيفُ، كُنَّا مُخطئينَ بالتَّأكيدِ، وأَلَ ذَلِكَ لِبُؤسِنا. على كُلِّ حال، لَمْ أَقعْ في البَدءِ على كَثيرينَ، بل على القَلائِلِ مِمَّن مارَسوا مِهنةَ الفَلسَفة، والذينَ بدونِ استِثناءِ اقتَصَروا في هذا العِلْمَ على الكَلماتِ فَقط.

١٣٥- أمَّا هو، فكانَ الأوَّلَ في تَحريضي على دِراسَةِ الفَلسَفة، بكَلِماتِه، وقدْ سَبَقَتْ تَصرُّفاتُه التَّحريضَ الشَّفوي. لَمْ يَكُنْ يَكتَفي بإنشادِ كَلِماتٍ قدْ أَتَمَّ التَّأمُّلَ فيها جَيّداً، بلْ كانَ يَحكُم بعَدَمِ جَدوى الكَلامِ ما لَمْ يَقُمْ على إحساسٍ صادِق، وجُهدٍ هو ضَروريٌّ لِمُطابَقَةِ الكَلامِ بالسُّلوك. وكانَ يُحاوِلُ أنْ يُحَقِّقَ في ذاتِه نَموذَجَ الرَّجُلِ المِثالي، الذي يَتَكَلَّمُ عنه، ويَطمَحُ العَيشَ باستِقامة. أُريدُ القَولَ إنَّه كانَ يَقدِّمُ ذاتَه مِثالَ حَياة.

١٣٦- وبما أنَّنا وَعَدْنا بقولِ الحَقيقةِ لا التَّكَلُّف، فَلَنْ أقولَ، بَعدَ هذا، إنَّه كانَ مَثلَ الإنسانِ الحَكيم أو مَثَلاً كامِلاً، وأترُكُ في الوَقتِ الحاضِرِ هذه النُّقطَةَ جانباً. إنَّما رَغِبَ بشِدَّةٍ أنْ يُصبِحَ هكذا، وكانَ يَتَمَرَّنُ على ذلِكَ بكُلِّ قُوَّةٍ وجُهْدٍ وشَوق، بما يَتَخَطَّى الإمكاناتِ البَشَريَّة (إذا صَحَّ التَّعْبيرُ).

١٣٧- أمَّا بشأنِنا، فكانَ بالطَّبعِ يُجاهِدُ لِتَربيَتِنا بالطَّريقةِ ذاتِها، وأنْ يُكسِبَنا البَراعَةَ والمَعرِفَة، لا في عِلمِ مَعرِفَةِ رَغائِبِ النَّفسِ فقط، بلْ في الرَّغائِبِ بالذَّات. وكانَ يَحُثُّنا على الأعمالِ والكَلام، مُقدِّماً لَنا معَ العِلمِ النَّظري، جزءاً غيرَ صَغيرٍ من كُلِّ فَضيلَة، بلْ رُبَّما الفَضيلَةَ بالكامِل، إنْ كُنَّا قادِرينَ على تَقَبُّلِها.

١٣٨- يَجِبُ أنْ أُقِرَّ أنَّه كانَ يُجبِرُنا بالقُوَّةِ على مُمارَسَةِ الحُكمِ بواسِطَةِ النَّشاطِ الذي هو خاصِيَّةُ الرّوحِ والتَّكَرُّسِ له. ويُبعِدُنا عنْ كَثرَةِ مَهامِ هذه الحَياةِ وطَوضاءِ المَكانِ العامِّ، مُحرِّضاً إيَّانا على تَفحُّصِ ذَواتِنا والاهتِمامِ بأعمالِنا الحَقيقيَّة.

١٣٩- وقدْ أشارَ بَعْضُ الفَلاسِفةِ القُدماءِ[٤١] أيضاً، أنْ في هذا تَكمُنُ مُمارَسَةُ العَدل، وفيه جَوهَرُ الفَضيلَةِ الحقيقي. أرادوا أن يَعنوا، بكلِماتٍ أُخرى، على ما أعتَقِد، أنَّ نَشاطاً مِنْ هذا النَّوعِ كانَ يُؤَدّي إلى سعادَتِهم وسعادةِ مَنْ يُمارِسُه. هذا إذا كانتْ مُهِمَّةُ العَدلِ تَحديداً، أنْ تُعطي لِكُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه، ولِكُلٍّ ما يَستَحِقُّه.

١٤٠- ما هي إذاً الوَظيفةُ الخاصَّةُ بالنَّفس، ومَنْ هو أكثرُ كَرامَةً من ذاكَ الذي يَعتَني بنَفسه؟ وماذا يَعني ذَلِكَ سِوى ألاَّ تنهَمِكَ النَّفسُ بالأشياءِ خارِجاً عَنها، وتَهتَمَّ بالأُمورِ هُنا وهُناك، (وبكَلِمة، أنْ تُسيءَ لِذاتِها)، بلْ أنْ تَلتَفِتْ إلى "أناها"، راجعَةً إليها، لِتَتَصَرَّفَ باستِقامة؟ هكذا كانَ، يُنشِئنا على مُمارَسَةِ العَدل مُرغِماً إيَّانا، إنْ جازَ التَّعبيرُ.

١٤١- وأنْ نَكونَ، بالطَّريقةِ عينِها، حَذِرينَ مِنَ التَّركيزِ على رُوحِنا، مُريدينَ اكتِسابَ مَعرِفَتِها بأيِّ ثَمَن. عَمَلٌ كَهذا هو حَقّاً مِنْ خَصائِصِ الفَلسَفة، ويَعودُ إلى لُغَةِ الأمر (الأكثرِ حِكمَةً) "اعرفْ نَفسَك"، عُرِفَ به (أطلَقَه) ذاك الذي امتَلَكَ (بينَ الشَّياطين) الرّوحَ الأكثرَ نَبوَيَّة[٤٢].

١٤٢- أصابَ القُدماءُ في اعتِبارِهم، أنَّ في تِلكَ الوَصيَّةِ، تَعبيراً عَنِ الدَّورِ الخاصِّ لِلفِطنَةِ البَشَرِيَّة، لأنَّ فَضيلَةَ الألوهَة (وبحَسبِ رأيهم) هي نَفسُها فَضيلَةُ البَشَر. فإذا ما اكتَسبَتْ الروحُ مَهارَةَ تَأَمُّلِ ذاتِها كما في مِرآة، ورُؤيَةَ ذاتِها كانعِكاسٍ لِلعَقلِ الإلَهيّ، وحافَظَتْ دَوماً على كَرامةِ هذه المُشارَكة، تُصبِحُ قادِرَةً على سلوكِ الدَّربِ غَيرِ المَوصوف، دَربِ التَّأَلُّه.

١٤٣- وكانَ يُرَبّينا، كَذلِكَ على أنْ نكونَ مُعتدِلينَ وأقوياء، مِنْ خِلالِ مُحافَظَتِنا على نعمةِ الفِطنَة، فِطنَةِ النَّفسِ التي تَعرِفُ ذاتَها، إنْ تَمَكَّنَتْ يَوماً. ففي ذلِكَ تَكمُنُ نعمةُ الاعتِدالِ التي هي الفِطنَةُ المُصانَة.

١٤٤- وأنْ نَكونَ أقوياءُ في تَطبيقِ ما نَكونُ قدْ قرَّرناه، دونَ أنْ نُبعِدَ بإرادَتِنا تِلكَ القَرارات، أو نُقصيها إثرَ ضَغطٍ ما، بلْ أنْ نَصونَها، ونَكونَ أسياداً بها. دَورٌ كَهذا هو مِنْ خصائِصِ القُوَّة التي هي الصيَّانةُ الغَيورَة وحارِسَةُ الإيمانِ المُعلَن.

---

[٤١] المَقصودُ بهم الفَلاسِفة الأفلاطونيين.

[٤٢] أيْ أبولو. وكانَ اليَهودُ والمَسيحيّونَ يَعتَبِرونَ الآلِهةَ الوَثَنِيَّة شياطين.

ز- بِرِفقَةِ كُلِّ فَضيلَةٍ وحِكمَة

١٤٥- في الحَقيقة، بالرُّغمِ مِنْ كُلِّ التَّعمُّق، لَمْ يَستَطِع جَعلَنا مُستَقيمين، ومُتَيقِّظين ومُعتدِلين وأقوياء، بسَبَبِ فُتورِنا وعَدَمِ مُبالاتِنا. فحنُ لا نَملُكُ أيَّ فضيلَةٍ بَشريَّةً كانتْ أم إلَهيَّة. وحتَّى لَمْ نَدنُ بعدُ مِنها، ويُعوِزُنا الكَثيرُ لِذلك،

١٤٦- لأنَّ هذه الفَضائِلِ هي عَظيمةٌ جدّاً وسامية، ولا يُمكنُ بُلوغُها لا هي ولا غَيرَها، بواسِطَةِ أَحدٍ ما لَمْ يَنفُخ اللهُ فيه القُوَّة. ونحنُ لا نَملكُ منَ التَّصرُّفاتِ ما هو طَبيعيٌّ ونَافِع، ونَعترِفُ بعَدمِ جَدارتِنا حتَّى بَعدَ الحَصولِ عليها، لأنَّنا لَم نَفعلْ، بسبَبِ تَراخينا وضُعفِنا، ما يَجبُ أَنْ يَقومَ به أُولَئِكَ الذينَ يَبغونَ الأَفضَلَ ويُفتِّشونَ عنِ الكَمال.

١٤٧- لا نزالُ مُتأخِّرينَ في امتِلاكِ العَدلِ واليَقَظةِ وبَعضِ الفَضائِلِ الأُخرى. وقدْ عَلَّمَنا هذا الرَّجُلُ الرَّائِعُ والصِّديقُ والمُبَشِّرُ بالفَضائِل، أَنْ نُحِبَّ حُبّاً حَيّاً لِلغايَة. هذا رُبَّما، هو الشَّيءُ الوَحيدُ الذي كانَ في استِطاعَتِه أَنْ يَفعَلَه.

١٤٨- وبِمَثَلِه الحَيّ، أكسَبَنا حُبَّ العَدالَة الجَميلة، مُظهِراً وجهَها البَرَّاق كالذَّهب، وحُبَّ الفِطنَة الذي يُنادي به الجَميع، وحُبَّ الحِكمَةِ الحَقيقيَّة المَحبوبَةِ كُلِّيّاً، وحُبَّ الاعتِدالِ الإلهيّ الذي هو صَفاءُ الرُّوح والسَّلامُ لِجميعِ منْ يَملكونه، وحُبَّ القُوَّةِ الكُلِّيَّة الرَّوعَة.

١٤٩- وعلَّمَنا أَنَّ كُلَّ شَيءٍ يَكمُنُ في صَبرِنا، وحبَّ العِبادَة، المُلَقَّبةِ بصواب، أُمِّ الفَضائِل، لأَنَّها لِجَميعِ الفَضائِلِ المَبدأُ والهَدَف. فإذا ما انطَلَقنا مِنها، يَسهُلُ علينا كَثيراً امتِلاكُ باقي الفَضائِل. مِنَ الضَّروريِّ أيضاً القَول، أَنَّنا وبَينما كُنَّا نَرغَبُ ونَطمَحُ بشَغفٍ في صَداقَةِ السيِّد، (وهي أَفضَليَّةٌ يَجبُ أنْ يَضَعها نَصبَ عَينيه كُلُّ رَجُلٍ غَيرِ مُلحِدٍ وفاسِد[٤٣])، لَمْ نُهمِل باقي الفَضائِل، ذلِكَ كي لا نَقتَرِبَ منَ اللهِ بِبُؤسٍ وبدونِ استِحقاق، بل صُحبَةَ كُلِّ فَضيلَةٍ وحِكمَة، وكَأَنَّنا بِرِفقةِ مُرشِدٍ أَمينٍ وكاهِنٍ كُلِّيِّ الحِكمَة. أَعتَقِدُ أَنَّ غايَتَنا النِهائِيَّةِ تَكمُنُ في التَّشبُّه باللهِ بِنقاءِ العَقل، وأَنْ نَدنوَ مِنه، ونَخلُدَ فيه.

س- يَفتَقِدُ المُلحِدونَ لِحُسنِ الإدراكِ البَشَريّ

١٥٠- ولإعطاءِ فِكرَةٍ كامِلَة عن غَيرَتِه علينا وعِنايَتِه بنا، كَيفَ يَجبُ أَنْ نَصِفَ بالكَلامِ تَعليمَه اللاهوت، وحِرصَه في تَدريسِ هذه المادَّة؟ وكَيفَ أُحاوِلُ النَهشَ (العَضَّ)[٤٤] بِطَريقةٍ

---

[٤٣] النَّصُّ الحَرفي αθεον η φιληδονον أيْ مُلحِد ومُلتَصِق بالشَّهوات.

[٤٤] تَشبيهٌ يدلُّ على حَجمِ المَحبَّة. تَستَعمِلُه الأُمَّهاتُ معَ أطفالِهِنَّ.

تُمكِّنني من الإحساسِ بهذا الرَّجُل، وبأيَّةِ رُوحٍ وأيِّ تَهيئةٍ أرادَنا أنْ نَتَعلَّمَ بعُمقٍ جَميعَ الأَحاديثِ في شأنِ الأُلوهَة، وبأيِّ دِقَّةٍ كانَ يَسهَرُ كي لا نُحازِفَ بأيِّ شَكلٍ منَ الأَشكال، إذ نحنُ بِصَدَدِ مَعرِفَةِ أَهَمِّ الأَشياء، أَعني العِلَّةَ الأُولى لِكُلِّ الكَون؟

١٥١- كانَ في الواقِع، مُقتَنِعاً بإلزاميَّةِ دَرسِنا لِلفَلسَفة، لِذلكَ أَجبَرنا على قِراءَةِ كافَّةِ نُصوصِ الفَلاسِفةِ والشُّعراءِ القُدامى، بدونِ أَنْ نَنبُذَ أو نَرفُضَ شَيئاً، لأَنَّنا لا نَملكُ بعدُ الوسائِلَ لِلحُكمِ عليها.

١٥٢- كانَ يَستَثني كِتاباتِ المُلحِدينَ فقط، لِكونِها تَتَنافى مَعَ المَفاهيمِ البَشريَّة، إذ تَزعُمُ عَدَمَ وجودِ الإِلَه والعِنايَةِ الإِلَهيَّة[٤٥]. فَأَعمالُهم لَيستْ جَديرةً بأَنْ تُقرأَ، إذ قدْ تَتَلَوَّثُ بِها نُفوسُنا المُخَصَّصَةُ لِمُمارَسَةِ التَّقوى، عِندَ سَماعِها أَحاديثَ تُناقِضُ عِبادَةَ الله. (بالمُناسَبة، تَجدُرُ الإشارة إلى أَنَّ الذي يَتَردَّدُ إلى الهياكل، مَهما كانَ إيمانُه، لا يُحِبُّ عليه أبداً مُلامَسَةَ أيِّ شيءٍ دَنِس). لِذلكَ لا يَجبُ على أَشخاصٍ تَكَرَّسوا لِلتَّقوى أَنْ يأخذوا بِعينِ الاعتِبارِ كِتاباتِ المُلحِدين.

١٥٣- إلاَّ أَنَّه ضَروريٌّ حَسبَ رأيه، الاحتِكاكُ ومُعاشَرَةُ جَميعِ الفَلاسِفةِ الآخرين، بدونِ تَفضيلِ مَدرَسَةٍ أو تَعليمٍ يُونانيّاً كانَ أَمْ بَربَريّاً، واحتِقارِ آخر، معَ واجِبِ التَّمَرُّسِ في جَميعِها.

١٥٤- يَطمَحُ هذا الأُسلوبُ في التَّعليمِ إلى حِكمَةٍ وحَذاقَةٍ كَبيرتَين: فلا نَقَعُ في خَطرِ الاستِماعِ إلى كَلِمةِ هذا أو ذاكَ من الفَلاسِفةِ فقط، وبالتَّالي في الحُكمِ بأَنَّها صَحيحَةٌ حتَّى لو لَمْ تكُنْ كذلِكَ أَبداً، وحتَّى لو تَسَلَّلتْ إلى نَفسِنا خادِعَةً، وصُهِرَتْ بأُسلوبٍ مُقنِعٍ، لَنْ تَتَمَكَّنَ من اقتِحامِنا، ونَكونُ كالصُّوفِ المَصبوغِ بِصَبغَةٍ لا تُمحى.

١٥٥- لأَنَّ الكَلِمةَ البَشريَّة هي في حَدِّ ذاتِها قَويَّةٌ وخادِعةٌ ومَاكِرة. وتَستَطيعُ مِنْ خِلالِ ما لَها مِنْ نُعومَةٍ، اختِراقَ الآذان، وتَركَ البَصَمات في سِجِلِّ النَّفس، وفَرضَ وتَحبيبَ ذاتِها على أَشخاصٍ قدْ جَعَلَتهم مِلكَها بالقُوَّة، كما لو كانتْ الحَقيقَةَ الأَسمى. وتَبقَى مَطبوعَةً في نَفسِهم حتَّى لو كانتْ مُزيَّفَةً وخادِعة، تُمارِسُ الضَّغطَ عليها (النَّفس) كَساحِرٍ يَنتَهي بِه المَطافُ إلى الحُصولُ على مُساند، هو ذاكَ الفَردُ الذي ذَهَبَ ضَحيَّةَ غِشِّه.

---

[٤٥] يُلمِّحُ على الإبيكوريين.

١٥٦- مِنْ جانبِها، تَنجَذِبُ النَّفسُ البَشَريَّةُ بسُهولَةٍ عَبرَ الكَلام، وبسببِ بلادَتِها وضُعفِها، أو هَشاشَةِ عَقلِها، تُبدي بسُرعَةٍ مُوافقَتَها عليه، قَبلَ أَنْ تَدرُسَ حُكمَها، وتَغوصَ في بَحثٍ كامِل، فَتَتَخلّى عَنِ القيامِ بِبَحثٍ مُتقَنٍ مُسلِّمَةً ذاتَها دونَ كَبيرِ مَشَقَّة، لِتعاليمَ ومَبادئَ هي في أَصلِها مُزيَّفَةٌ حتَّى لِذاتِها، وتُضلُّ الذينَ يَتَمسَّكونَ بها[٤٦].

١٥٧- ولَيتَ القِصَّةَ تَنتَهي هُنا، فلو جَرَّبتَ أَيَّ كَلِمَةٍ أُخرى تَعديلَها، فَلَنْ تَقبَلَ بها، ولَنْ تُغيِّرَ قناعَتَها، بلْ تَظَلُّ أَسيرَةً لِتلكَ السَّابقِ انطباعُها فيها، كما لو أَنَّ طاغِيَةً مُستَبِدّاً أَمسَكَ بها.

ش- مَعرِفَةُ اللهِ والرَّحمَةُ الإلَهيَّة

١٥٨- أَلَمْ تَكُنِ الكَلِمةُ هي التي أَدخَلتْ هذه المَذاهِبَ المُتعارِضة في صِراعٍ فيما بَينَها، والعَداوَةَ بينَ الفَلاسِفة الذينَ باتوا يَتناحَرونَ بالتَّناوبِ في مسائِلَ عقائِديَّة، فَيلعنُ هؤلاءِ أفكاراً مُعيَّنة، ويَتمَسَّكُ أُولَئِكَ بنَظَريَّاتٍ مُعاكِسَة؟

١٥٩- ومعَ ذلِكَ يَودُّ الجَميعُ بدونِ استِثناءٍ أَنْ يَكونوا فلاسِفَة. ويَزعُمونَ ذلِكَ مُنذُ اللَّحظةِ الأُولى لانكِبابِهم عليها. وبَعدَ مُمارَسَتِها يَدَّعون أَنَّ رَغبَتَهم ليستْ أَقلَّ عَظَمةً مِنَ البدايات، بلْ هي أفضَلُ إذ أَصبَحَ لَديهم حُبٌّ لِلفَلسَفةِ عَظيمٌ لِلغايَة. فقدْ استَطاعوا تَذوُّقَها، لِنَقُلْ ذلِك، وأَمضوا وَقتاً في دِراسَتِها، ودَفَعَتهم رَغبَةٌ ما نَحوها، رُغمَ قِلَّةِ خِبرَتِهم في البداية. فَهؤلاء، وإنْ صَرَّحوا بذلك، لا يَزالونَ عاجِزينَ عن الإنصاتِ إلى نَظَريَّاتٍ مُغايرةٍ لِنَظَريَّاتِهم.

١٦٠- لَمْ يَستَطِعْ أَحَدٌ مِنْ أُولَئِكَ الذين يُمارِسونَ الفَلسَفَةَ القَديمة[٤٧] أَنْ يَهديَ أَحداً من أتباعِ الفَلسَفةِ الجَديدة[٤٨] إلى اعتِناقِ مُعتَقَده، ولا حتَّى مِنَ المَشَّائِيّين[٤٩] أو مِنْ أَيِّ مَذهَبٍ آخر. والعَكسُ صَحيح، لَمْ يَستَطِعْ أَحدٌ أَنْ يَهديَ آخر.

١٦١- ولا أَحدَ يَترُكُ اعتِقادَه بسُهولةٍ ويَتبَعُ مَبادئَ مُختَلِفَة. حتَّى لو اقتَنَعَ أَحدُهم، فَلَنْ يُفَضِّلَهم فوراً قَبلَ أَنْ يُباشِرَ بالتَّفلسُف. معَ ذلِكَ، فَشخصٌ كَهذا لو لَمْ يَكنْ خالِيَ النَّفسِ

---

[٤٦] راجِع رسالة القِدِّيس بولس الثّانية إلى تيموثاوس ٣: ١٣.

[٤٧] الأفلاطونيّون.

[٤٨] الرّواقيّون.

[٤٩] أتباعِ مَنهَجِ أرسطو.

من أيِّ مُعتقدٍ آخرَ، لَما كانَ يُبدي مُوافَقَته على مثلِ هذه المَبادئ، ولَما كانَ يُحبُّها ويَبدأُ بمُعادَاة الأفكارِ التي كانَ يُعلِنُها في السَّابق.

١٦٢- وفقَ هذا المِعيارِ تَفلسَفَ اليونانيُّون الماهِرون، والبُلغاءُ والدَّقيقونَ في البَحث: فيَدَّعي كُلٌّ مِنهم أنَّ المَبادئَ التي غاصَ فيها هي وَحدَها الصَّحيحَة، وهو بالتَّالي مُنقادٌ بدافعٍ داخليٍّ، والآخرونَ هم بالعَكسِ يَخدَعونَ بثَرثَرَتِهم الفارغة. ولا أَحدَ يَدعَمُ عَقليًّاً أفكارَهم أكثرَ مِمَّا يَفعَلُه باقي الفَلاسِفةُ بالنِّسبَةِ لأفكارِهم أيضاً. وكأنَّه قدْ قُدِّرَ لَهم ألاَّ يُغيِّروا آراءَ هم أو أفكارَهم، وأنْ يَتصرَّفوا عن اضطِّرارٍ أو عنِ اقتِناع.

١٦٣- إذا أَردنا القَولَ، يَقودُهم اندِفاعٌ لا عَقلانيّ على إعلانِ بَعضِ المُعتقدات، قَبلَ أنْ يَعرفوا شيئاً من الفَلسَفة. إنَّها الصُّدفَةُ العَمياءُ التي لا تَبدو عَجيبَة، وهو المِعيارُ الوَحيدُ لاختِيارِهم لِما يَزعمونَ أنَّه الحَقيقة. كُلُّ واحِدٍ مِنهم يُعَظِّمُ أفكارَه التي يكونُ في البِدايةِ قد اختَبَرَها عنْ طَريقِ الصُّدفَة، فقَيَّدَته تَقريباً كي لا يَرى سِواها.

١٦٤- وحتَّى عِندما يَبغي بمُؤازَرةِ العَقل، البُرهان على صِحَّةِ آرائِه، وخطأِ آراءِ مُنافِسيه، يَنطَلِقُ مُنذُ اللَّحظَةِ الأُولى بدونِ اللُجوءِ لِمُساعَدة العَقل، ويَستَسلِمُ كُليًّاً لِتلكَ الأفكارِ التي سَبقَ ووافَقَ عليها بدونِ تَبَصُّر، مُتَوَخيًّاً مِنها كَتراً لا شكَّ فيه.

١٦٥- هؤلاءِ الفَلاسِفة، قدْ حَيَّروا تلاميذَهم في كافَّةِ المسائِل، وخُصوصاً في أَهمِّها وأَشدِّها حاجَةً، أَ لا وهي مَعرِفَةُ الله والتَّقوى.

١٦٦-ورُغمَ ذلِكَ يَبقونَ مُقيَّدينَ بطريقةٍ ما بتلكَ الآراءِ، ولا يَستَطيعُ أَحدٌ تَخليصَهم مِنها بسُهولَة. مَثَلُهم مَثَلَ مُستَنقَعٍ يَنفَتِحُ على سَهلٍ شاسِع، فَمن يَقَعُ فيه لا يَقدرُ العَودَةَ إلى الوراء، ولا عُبورَه لِلنَجاة، فَيَبقى غارقاً فيه حتَّى المَوت.

١٦٧- أو يُشبِهونَ غابَةً عَميقَةً كَثيفَةَ الأَشجارِ العالِيَة، دَخَلَها مُسافِرٌ ظَنَّ أنَّه سَيَخرُجُ مِنها سَريعاً، فيَجدُ نَفسَه مُجدَّداً في أَمَدٍ خالٍ مِنَ السُّور. إلاَّ أنَّ طولَ وكثافَةَ الغابَةِ حالا دونَ ذلك. فانعَطَفَ يَمنَةً ويُسرى، مُتَوغِّلاً في طُرُقاتِ الغابَة، وسائِراً مِنْ طَريقٍ إلى أُخرى، ظَانًّاً أنَّ إحداها ستُمكِّنُه قريباً منَ الخُروج، لَكِنَّ جَميعَها لن تَقوده سِوى إلى الدَّاخل وأبداً إلى الخارِج، لِكونِها جميعاً طُرقاً تَنتَمي لِلغابَةِ وَحدَها. وهكذا استَسلَمَ المُسافِرُ في نِهايَةِ

المَطاف مِنْ جَرَّاءِ التَّعب، وكأنَّ كُلَّ شيءٍ غابَة، وكأنَّه لَمْ يَبقَ على الأَرضِ مكانٌ يُسكَن. فَقَرَّرَ البَقاءَ في الغابَةِ ورتَّبَ لِنَفسه مَسكِناً فيها، في الفَسْحَةِ الأَكثرَ اتِّساعاً.

١٦٨- أو أيضاً، كَمِتاهَةٍ لَها مَدخَلٌ واحِدٌ واضِح، دَخلَها أَحدُهم عَبرَه بدون أَنْ يَشُكَّ بتَشعُّبِها. وما أَنْ بَلَغَ مُنتَصَفَها، حتَّى اختَلَفَ أَمامَه المَنْظَرُ كُلِّيًّا، فهو أَمامَ أَروِقَةٍ عَديدة لها العَديد مِنَ المَداخِلِ والمَخارِج. ولَمَّا أَرادَ الخُروجَ لَمْ يَستَطِع، إذ هو سَجينٌ داخِلَ مَبنىً كانَ قدْ اعتَقَدَه عَملاً فَنِّياً رائِعاً.

١٦٩- ورُغمَ ذلِكَ كُلِّه، فلا وجودَ لِمتاهَةٍ مُعقَّدَةٍ لا مَفَرَّ مِنها، ولا لِغابَةٍ في غايَةِ الكَثافَة، ولا لِسَهلٍ أو مُستَنقَعٍ رَهيب، لإغراءِ منْ يَقتَربُ مِنها، إلاَّ حينَ نَتبَعُ تَعليمَ كَثيرينَ مِن هؤلاءِ الفلاسِفَة.

١٧٠- ولِكي لا تَنالَنا المُصيبَةُ التي نالَتْ مُعظَمَ الرِّجال، لَمْ يَدعْنا المُعلِّمُ نَنقاد إلى مَذهَبٍ فَلسَفيٍّ واحِدٍ دونَ آخر. بلْ كانَ يَقودُنا إلى كافَّةِ المَذاهِبِ غيرَ راغِبٍ بتَركِنا نَجهَلُ ولو مَبدأً واحِداً منْ مَبادئِ الفَلسَفةِ اليونانيَّة.

١٧١- وكانَ يَلجُها مَعنا سائِراً في المُقدَّمة، ومُوصِلاً إيَّانا بيَدِه، حتَّى إذا ما اعتَرَضَنا دَسيسٌ أو صُعوبَةٌ أو حاجِز، يَبقَى هو في الأَعلى والأَمَن، ويَستَطيعُ كَمُجَرَّبٍ واعٍ، مُواجَهة جَميعِ التَّيَّاراتِ الفَلسَفيَّة، فيَمُدُّ يَدَه للآخرينَ ويُخلِّصُهم، وكأَنَّه يَنتَشِلُ مِنَ الماءِ أَشخاصاً أَوشَكوا على الغَرَق.

١٧٢- كانَ يَنتَقي مِنْ كُلٍّ فيلَسوفٍ الأَفيدَ والأَصحَّ ويَعرِضُه علينا.

١٧٣- ويُقصي بالعَكسِ ما كانَ زائِفاً، خُصوصاً فيما يَتعلَّقُ بالتَّقوى البَشَريَّة.

ص- أوريجينوس مُفَسِّرُ تَعاليمِ الربّ

وبهذا الصَّدَد، كانَ يَنصَحُنا بعَدَمِ التَّعلُّقِ بأيٍّ مِنَ الفَلاسِفَة، حتَّى بمَن يَتَمَتَّعُ مِنهم لِحكمَتِه بسُمعَة عَظيمةً لَدى جميعِ النَّاس، بلْ باللهِ وحدَه وبأنبيائِه يجبُ أَنْ نَتعلَّق.

١٧٤- كانَ يَشرَحُ بوضوحٍ الغَوامِضَ والأَلغازَ التي تَرِدُ غالِباً في اللُّغَةِ الكِتابيَّة، ويُعطي أَسبابَ غُموضِها: فإمَّا لأَنَّ الخالِقَ يُحبُّ التَّحَفُّظَ معَ النَّاسِ كي لا يَدخُلَ الكَلِمَةُ الإلَهيُّ عارياً مُتَكَشِّفاً في نُفوسٍ غَيرِ مُستَحِقَّة[٥٠] كما هي حالُ الأَكثريَّة. أو لأَنَّ الخِطابَ الإلَهيَّ

---

[٥٠] راجع متّى ١٣: ١٣-١٤. "لِذلكَ أُكَلِّمُهم بأمثال، لِكَي لا يروا وهُم ناظِرون...".

ورُغمَ طَبيعَتِه الواضِحَةِ والبَسيطة، يَبدو لَنا غامِضاً ومَلغوزاً بِسببِ ابتِعادِنا عن الله، وعَدَمِ تَعَلُّمنا سَماعه. في كُلِّ الأَحوالِ كانَ يَشرَحُ ويُوَضِّحُ الأَفكار، مَهما كانتْ غامِضَة، لأَنَّه كانَ خَيرَ خَبيرٍ وخَيرَ مُصغٍ للأُلوهة.

١٧٥- وكانَ يَعتَبِرُ أَنَّ الكلامَ المُقَدَّسَ لا يَحملُ بِطبيعَتِه أَيَّ التِباس، أو عَدَمَ إمكانيَّةِ فَهم. وهو الوَحيدُ بينَ رِجالِ أَيّامِنا الذينَ أَعرِفُهم شخصيّاً أو سَمِعتُ بِهم، قدْ تَمَرَّسَ في نَفسِه، على مُعانَقَةِ النُّبوءات[٥١] النَّيرَة والطّاهِرة، وتَعليمِها للآخرين.

١٧٦- إنَّ الخالِقَ وَحدَه، يُرشِدُ ويُلهِمُ إلى كُلِّ نُبوءَة، وجَعَلَ أَصدِقاءه الأنبياء مُفَسِّرينَ لِكُلِّ كَلِمَة سِرِّيَّة[٥٢] وإلَهيَّة ولِجَميعِ خِطاباتِه.

١٧٧- لَمْ يَقُلْ مِن خِلالِ الآخرينَ سِوى الأَلغاز. وهو المُستَحِقُّ كُلَّ إيمانٍ يُعلِّمُ ذلِكَ مِن خِلالِ هذا الرَّجُل، إذ قدْ مَنَحَه هِبَةَ فَحصٍ واكتِشافِ أَسبابِ جَميعِ ما أَعدَّه وأَوحَى به.

١٧٨- هَكذا، فإنْ حَرِصَ أَحدٌ على التَّعَلُّمِ والتَّثقُّفِ عندَ هذا الرَّجُل، ولو كانَ بِنَفسٍ مُتصَلِّبَةٍ وبلا إيمان، فَإنَّه سَيَرومُ البَقاءَ مَعه والإيمانَ بِكلِمَتِه، فَيُصبَحَ تابِعاً لِلربّ.

١٧٩- لَيسَ بِرأيي، لِكُلِّ ما يَنطُقُ به أَيُّ مَصدَرٍ آخر، سِوى اشتِراكِه مع الرُّوحِ القُدُس[٥٣]، في الواقِع، لا بُدَّ لأُولَئِكَ الذينَ يَسمَعونَ النُّبوءاتِ مِنْ امتِلاكِ مَوهِبَةِ مُتَنَبِّئِها. ولا يَستَطيعُ أَحدٌ الاستِماعَ إلى نَبيٍّ ما لَمْ يَمنَحُه الرُّوح القُدُس نَفسُه الذي بِواسِطَتِه تَنَبَّأَ، فَهمَ كَلِمَتِه.

١٨٠- تَرِدُ في الكِتابِ المُقَدَّس الآيةُ التّالية: "*وأَجعَلُ مُفتاحَ بَيتِ داوُدَ على كَتِفِه، يَفتَحُ فلا يُغلِقُ أَحَدٌ، ويُغلِقُ فلا يَفتَحُ أَحَد*"[٥٤]. فالكَلِمةُ الإلَهيُّ في تَفسيرِه للأَلغازِ يَفتَحُ ما هو مُغلَق.

١٨١- تَلَقّى هذا الرَّجُلُ مِنَ اللهِ العَطيَّةَ العُظمى، ومِنَ السَّماءِ الحِصَّةَ الفُضلى. إنَّه مُفَسِّرُ كلامِ اللهِ لِلبَشر. يَفهَمُ الأُمورَ مِنَ الله، وكأَنَّه يُكلِّمُه، ويَشرَحُها لِلبشرِ لِيَسهَلَ لهم استيعابُها[٥٥].

---

[٥١] راجِع مزمور ١٨: ٨-٩. "شَريعةُ الربِّ كامِلَةٌ تُنعِشُ النَّفس...".

[٥٢] في النَّص μυστικον، وفي مَعناها الواقِعي التَّدبير الإلَهي المَحجوبِ عن الإدراك.

[٥٣] راجِع رسالة القدِّيس بولس الثّانية إلى أَهلِ كورنثس ١٣: ١٣.

[٥٤] أشعيا ٢٢: ٢٢. وراجِع أيضاً أيوب ١٢: ١٤ وأعمال الرُّسل ٣: ٧.

[٥٥] راجِع متّى ١٣: ١٥-١٦ و لوقا ١٠: ٢٣-٢٤.

١٨٢- لِذلك لَمْ يَبقَ عَلينا شَيءٌ غامِض، أو مَستورٌ أو صَعبُ المَنال، بلْ بالعَكس، أمكَننا تَعَلُّمَ كُلِّ عِلم، بربريًّا كانَ أَمْ يونانيًّا، غامِضاً أو مُسيَّساً، إلَهيًّا أو بَشَريًّا، لأَنَّنا وبِمِلءِ حُرِّيَّتِنا كُنَّا نَبحَثُ عن كُلِّ شيءٍ ونَفحَصُه، ونَمتَلِئُ مِنْ كُلِّ شيء، مُتمَتِّعينَ بالخيراتِ الرُّوحيَّةِ مِنْ جميعِ الأَصناف. وإنْ كانَ الأَمرُ يَتعلَّقُ بِعِلمِ الحَقيقةِ أَو بِغَيرِه (بدونِ أن نُسَمِّيه)، كُنَّا نَتوقَّفُ مُتأَمِّلينَ فيه، وَواجِدينَ فيه الكَثيرَ مِنَ الموادِ القَيِّمة والأَفكارِ البالِغةِ الجَمال.

١٨٣- بِكَلِمة واحِدَة، كُنَّا في الجَنَّة، وكأَنَّني بِها جَنَّةُ اللهِ الكُبرى، حيثُ لَيسَ علينا العَملُ لِهذه الأَرض، أو تَغذيَةُ أَجسادنا مُثقِّلين، بلْ علينا أَنْ نُنمِيَ الخَيراتِ الرُّوحيَّة، كَنباتاتٍ في مِلءِ نُضجِها زَرعناها نحنُ بِأَنفُسِنا، أو زَرَعَها فينا خالِقُ جميعِ الأَشياء لِنَتَمَتَّعَ ونَعيشَ سُعداء[٥٦].

ض- الانطِلاقُ والمُستقبَل

١٨٤- كانَ حَقًّا فِردَوسَ السَّعادة[٥٧] والمَلَذّاتِ الوافِرَة ما تَمَتَّعنا بِه في ما مَضى مِنَ الوَقت[٥٨]، لَمْ تَكُنِ الفَترَةُ قَصيرَةً ومَعَ ذلِكَ هي قَصيرةٌ جِدًّا، لأَنَّها سَتنتَهي في هذه اللَّحظةِ بالذّات، برحيلِنا وابتِعادنا عن هذا المكان.

١٨٥- لا أَعلَمُ في الحَقيقَة، بِسبَبِ أَيِّ حادِثٍ أَو ذَنبٍ يَجبُ أَنْ أُغادر، أو أُطرَد. ها قَدْ بَدأتُ بالكلام ولا أَستَطيعُ قَولَ شَيءٍ آخرَ سِوى أَنّي آدَم ثانٍ طُرِدَ مِنَ الفِردَوس[٥٩]. كَمْ كُنتُ أَحيا سَعيداً وأَنا أَستَمِعُ بِصمتٍ لِكلِمةِ المُعلِّم! بِحَقِّ السَّماءِ لو أَستَطيعُ الآنَ البَقاءَ هادِئاً وصامِتاً ولا أُحوِّلَ المُعلِّمَ إلى تِلميذ (يكونُ ذلكَ مَشهَداً جديداً!).

١٨٦- وأَيُّ حاجَةٍ كانتْ تُعوزني لإلقاءِ هذا الخِطاب؟ ولِماذا أَتَلفَّظُ بِهذه الكَلِمات طالَما أَنّي لنْ أَبقى بلْ سأَرحَل؟ أَعتَقِدُ أَنَّ الذُّنوبَ هي ذُنوبُ الخَديعَةِ القَديمة[٦٠]. ولا تَنتَظِرُني سِوى العُقوباتُ التي نالَها الجَدَّانِ الأَوَّلان[٦١].

---

[٥٦] راجِع تكوين ٣: ٢٣ و متّى ١٥: ١٣ و رسالة يَعقوب ١: ٢١، حيثُ نَجِدُ الأَحاديثَ التي يَبدو أَنَّه استعارَ مِنها كَلِماته.

[٥٧] راجع تكوين ٣: ٢٣-٢٤ وحزقيال ٢٨: ١٣ و يونان ٢:٣.

[٥٨] سَنَجِدُ من الآنَ فَصاعِداً الكَثيرَ مِنَ الاستِفهاماتِ والتَّساؤلات، الأَمرُ الذي يَدُلُّ على جَيشانِ مَشاعِرِ غُريغوريوس في هذه اللَّحظات.

[٥٩] راجع تكوين ٣: ٢٣-٢٤.

[٦٠] خَديعة الحيَّة لآدم وحوّاء.

١٨٧- يَبدو لي، أنّي أنا أيضاً لَمْ أُطِع، وتَجاسَرتُ على مُخالَفةِ الوصايا الإلَهيَّة التي علـيَّ البَقاء فيها[٦٢]؟ إنّي راحِلٌ وهارِبٌ من هذه الحَياةِ الطُّوباويَّة، مِثلَ الإنسـانِ الأوَّل الـذي هَرَبَ مِنْ وَجهِ الله[٦٣]، وعائِدٌ إلى الأَرضِ التي مِنها أُخِذت[٦٤].

١٨٨- هُناكَ إذاً سأكُلُ التُّراب[٦٥] كُلَّ أيّامِ حياتي[٦٦]، لا بلْ مِنَ الآنَ أفلَـحُ الأَرضَ الـتي تُنبتُ لي شَوكاً وحَسَكاً[٦٧]، أَرضَ آلامي وهُمومي الدَّنيئة بَعدَما قُلتُ وداعـاً للأفكـارِ الجَميلةِ والجيّدة.

١٨٩- وأعودُ إلى ما كُنتُ قدْ تَرَكتُه، إلى الأَرضِ التي مِنها خَرجتُ[٦٨]، إلى قَرابَةِ هَـهُنا، إلى بيتِ أبي[٦٩]. أترُكُ الأَرضَ الطَّيّبَة؛ وبِكُلِّ أَسَفٍ سأشعُرُ بذلِكَ بَعدَ فواتِ الأوان. أتـرُكُ أهلاً لَمْ أَلبث أنْ بَدأتُ فَهمَهم بعدَ وَقتٍ طَويل وقد كانوا جزءاً مِنْ روحي. أترُكُ بيـتَ والِدِنا الحَقيقي حيثُ فيه يَسكُن مُكرَّماً لِلغايَة، مُحتَرَماً مِنَ الأبناء الحَقيقيينَ الذين يُريـدونَ البَقاء. أمَّا أنا، العَديمَ التَّقوى والاستِحقاق فأعودُ القَهقَرَ[٧٠].

١٩٠- يُقالُ عنْ ابنٍ[٧١] أنَّه بَعدَما أَخذَ نَصيبَه في الميراثِ مِنْ أبيه، ابتَعَدَ بإرادَته مُتوَجِّهاً إلى بَلَدٍ بَعيد، بَذَّرَ فيها إرثَه في عيشَةٍ فاسِقة، وفي النِّهاية، تَمَنَّى بسـببِ عَـوَزه، أنْ يَرعـى الخَنازير. ولَمَّا أَضناه الجُوع وَدَّ مُشارَكةَ الخنازيرِ في طَعامِها، إلاَّ أنَّه لَمْ يَحصلْ حتَّى علـى هذا. فَدَفَعَ باهِظاً ثَمنَ حياةِ الفُجورِ التي عاشَها مُبَدِّلاً مائِدَةَ أبيه المُلوكيَّةِ بِطعامِ الخنـازيرِ والأُجراء، الأَمرُ الذي لَمْ يَتوقَّع حُدوثَه البَتَّة.

---

[٦١] راجع تكوين ٣: ٢٣-٢٤.

[٦٢] راجع تكوين ١٥: ٧؛٩؛١٠ و رسالة يُوحنّا الأُولى ٤: ١٣.

[٦٣] راجع تكوين ٣: ٨.

[٦٤] راجع تكوين ٣: ٢٣.

[٦٥] راجع تكوين ٣: ١٤.

[٦٦] راجع تكوين ٣: ١٧.

[٦٧] راجع تكوين ٣: ١٨ ورسالة القدّيس بولس إلى العِبرانيين ٦: ٨.

[٦٨] راجع تكوين ٣: ١٩.

[٦٩] راجع تكوين ١٢: ١ و أشعيا ٢٢: ٢٣.

[٧٠] راجع متّى ٢٤: ١٨ ومرقس ١٣: ١٦ ولوقا ١٧: ٣٢ وتكوين ١٩: ٢٦.

[٧١] الابنُ الضّال، راجع لوقا ١٥: ١١-٣٢.

١٩١- ويَبدو أَنَّنا بابتِعادِنا عن هُنا، سَنَتَحَمَّلُ شيئاً مُشابِهاً رُغمَ كُلِّ ما نَحمِلُه مِنْ إرث. نُغادِرُ بِدونِ أَنْ نكونَ قدْ أَخذْنا الضَّروريّ، تارِكينَ عندَكَ ومَعكَ كُلُّ ما هو جَميل ومَحبوب، وحاصِلِينَ على الأَسوأ.

١٩٢- تَنتَظِرُنا في المُستَقبَلِ الكَثيرُ منَ الأَشجان: عدمُ السَّلام و العَويلُ والفَوضى، وحَياةٌ لا تَرتيبَ فيها ولا هُدوء، ولا حُرِّيَّةٌ بلْ عُبوديَّةٌ قاسِيَة. مَحاكِمُ وكراسي قَضاء، وخُصوماتٌ وفَراغ.

١٩٣- لنْ يَكونَ عِندَنا فيما بَعد، مُتَّسَعٌ مِنَ الوَقتَ لِلتَّكرُّسِ لِلنَّشاطاتِ الأَسمى. ولنْ نَتحَدَّثَ عنِ الآياتِ الإلَهيَّة، بلْ سَيكونُ حالُنا على حَدِّ قَولِ النَّبيّ[٧٢] لعنَةً حَقيقيَّة، مِنْ جَرَّاءِ عَملِ النَّاسِ والأَشرار.

١٩٤- سَيكونُ لَيلٌ بَعدَ نَهار[٧٣]، والعتماتُ بعدَ ساطِعِ الضِّياء، والجِدادُ بعدَ التَّعييد[٧٤]. مَسبيُّونَ مِنْ أَرضِ الوَطن، سَيَستَقبِلُنا بَلَدٌ عَدوّ[٧٥] غَريبٌ عن روحي، يَمنَعُني مِن تَرنيمِ نَشيدٍ مُقَدَّس. فَكيفَ يُمكِنُني العَيشَ فيه، وسَيَستحيلُ عليَّ الاتِّحادُ باللهِ؟ لنْ أَقدِرَ سِوى على البُكاءِ والنَّحيب، مُتَذَكِّراً هذه الخَيرات، اللَّهُمَّ إذا مُنحتُ مَوهِبَةَ حِفظِ الذِّكريات[٧٦].

١٩٥- يُحكى عنْ مَدينَةٍ كَبيرةٍ ومُقَدَّسةٍ ومُتعَبِّدَة سَقَطتْ في أَيدي الأَعداء، فَقادوا سُكَّانَها إلى أَرضِهم، بابل، وأَسَروا كَثيرينَ مِنْ الشُعراءِ والأَنْبياء. أَمَّا مَنْ سيقوا حتَّى بِناءً على طَلَبِ مُعلِّميهم، فَلَمْ يَرضَوا تَكريمَ إلَهِهم والعَزفَ على آلاتِهم في أَرضٍ دَنِسَة، بلْ علَّقوا آلاتَهم الموسيقيَّةِ على شَجَرِ الصَّفصاف، وجَلَسوا يَبكونَ على ضِفافِ أَنهارِ بابل.

١٩٦- أَظُنُّني واحِداً مِنهم، وقدْ طُرِدتُ من وَطَني ومَدينتي المُقَدَّسَة، حيثُ كُنَّا نَهاراً ولَيلاً نَهُذُّ بالوصايا الإلَهيَّة والتَّسابيحِ والأَناشيد، والكَلِماتِ السريَّة، وحيثُ يُضيءُ نُورٌ يُشبِه

---

[٧٢] راجع مزمور ١٦: ٤. "بِحسبِ أَقوالِ شَفَتيكَ أَنا لَزِمتُ طُرُقاً وَعِرَة".

[٧٣] راجع أعمالُ الرُّسل ٢١: ٢٣-٢٥.

[٧٤] راجع عاموس ٨: ١٠ وطوبيَّا ٢: ٦.

[٧٥] راجع المزمور ١٣٦: ١-٤. "على أَنهارِ بابلَ هُناك جَلَسنا...".

[٧٦] راجع مزمور ١٣٦: ٦. "ولْيَلتَصِق لِساني بِحلقي إذا لَمْ أَذكُرك".

تَماماً نورَ الشَّمس المُستمِر[٧٧]. كُنَّا في الحَقيقةِ نأنَسُ نهاراً بالأسرارِ الإلَهيَّة، ونَغوصُ لَيلاً في تَخيُّلِ ما شاهَدَته نُفوسُنا وقامَتْ به أثناءَ النَّهار.

١٩٧- لَكِنَّني نُفيتُ وسُجِنتُ إلى بَلَدٍ غَريب، حيثُ لنْ يُسمَحَ لي بالعَزفِ على النَّاي، وسأُعلِّقُ آلَتي مِثلَ أُولَئِكَ القَومِ على شَجَرَةِ الصَّفصاف، وسأكونُ على ضِفافِ الأنهارِ وأُمارِسُ حِرفَةَ الخَزَف[٧٨]، وأَرفُضُ تَرتيلَ الأناشيدِ مُستَعيداً ذِكرَياتي. وربَّما ستَضعُفُ ذاكِرتي بِسَبَبِ سُوءِ تَصرُّفاتي، فأنسى.

١٩٨- وبابتِعادي مِنْ هُنا (حتَّى ولو كنتُ أتأهَّبُ لِلسَّفرِ مِثلَ سَجين، رُغماً عَنّي. إلاَّ أنَّني لَستُ مَهزوماً مِنْ قِبَلِ أحدٍ سِواي أنا، بَينما كانَ بإمكاني البَقاء).

١٩٩- رُبَّما، أُكَرِّرُ، بابتِعادي مِنْ هُنا، وخُروجي مِنْ مَدينةٍ هادئَة ومُسالِمة، سأُضطَرُّ لِلسَّفرِ بلا أمان. وربَّما سأَقَعُ أثناءَ سَفَري بينَ أيدي اللُّصوص، وأُعَرَّى وأُقيَّد، وأمتَلِئُ جِراحاً، وأَقبَعُ نِصفَ مَيت مُهملاً حَيثُ أنا[٧٩].

ط- تَعتني بنا الأُلوهَة

٢٠٠- لَكِن لِمَ أنتَحِبُ هَكذا؟ طالَما يَحمي الجَميعَ المُخلِّصُ والكَلِمَةُ والسَّاهِرُ[٨٠]، والحارِسُ وطَبيبُ المُدنفين والمَسلوبين.

٢٠١- وطالَما لنا بُذورٌ أنتَ زَرَعتَها فينا[٨١]، وهي تَعاليمُ الحَياةِ الجَميلة التي لَقَّنتَناها. سأَتَزوَّدُ بها وأنطلِقُ بَاكياً لِرَحيلي، لَكنّي سأَحمِلُها مَعي. فَلَرُبَّما يُخَلِّصُنا الحارِسُ السَّائِرُ بقُربِنا.

٢٠٢- رُبَّما سَنَعودُ إليكَ مِنْ جَديد، حامِلينَ ثِمارَ وحِزَمَ بُذورِكَ التي سَبَقتَ وبَذَرتَها، لنْ أقولَ إنَّها ستَكونُ كامِلة (فَكيفَ نَستَطيعُ ذلِك؟)، إنَّما سَنَجنيها مِنْ نشاطِنا العُمومي: وتَكونُ حِزماً رَديئَةً نوعاً ما، على حَسَبِ طَبيعَتِنا العَقيمَة، التي تُنتِجُ ثِماراً غيرَ جَيِّدة، إنَّما لنْ يُقَدَّرَ لها الإتلاف عنْ يَدِنا، طالَما تَحرُسُنا الأُلوهَة[٨٢].

---

[٧٧] يَستعيدُ غريغوريوس في هذا التَّشبيه نَصَّ أعمالِ الرُّسل ٢١: ٢٣-٢٥، ويُشبِّه مَدرسةَ أوريجينوس بأُورشَليم المُشرِقة بمجدِ الله.

[٧٨] راجع خروج ١: ١٤.

[٧٩] يُطبِّقُ غريغوريوس على نَفسه حادِثَةَ السَّامري الرَّحيم. راجع لو ١٠: ٣٠-٣٧.

[٨٠] راجع مزمور ١٢٠: ٤. "إنَّ حارِسَ إسرائيل لا يَنعَسُ لا ينام".

[٨١] راجع رسالة يُوحنَّا الأولى ٣: ٩.

[٨٢] راجع مزمور ١٢٥: ٦. "يَنطَلِقُ فَيَسيرُ باكياً وهو يَحملُ البِذر، يَعودُ فَيأتي مُهلِّلاً وهو يَحملُ حِزمَه".

ظ- دُموعُ انطِلاقِ الأَصدِقاء

٢٠٣- فَلَيْنَتِهِ حَديثي عِند هذا الحَدّ، وقَدْ زادَ في تَجاسُرِه حيثُ لا يَجبُ، وبِحضورِ الكَثيرِ مِنَ النَّاس. إلاَّ أَنَّه بِحَسبِ رأيي، قدْ شَكَرَ (حديثي) كما يَجبُ، بِصَراحَةٍ وعِرفانِ جَميلٍ يَتوافَقانِ على ما أَعتَقدُ معَ قُدرَتِنا. ورُغمَ أَنَّنا لَمْ نَتَلَفَّظ بِالكَلِماتِ المُناسِبة فَمعَ ذلِكَ لم نَصمُت. أَضِفْ إلى ذلِكَ أَنَّا ذَرَفنا الدُّموعَ كما يَذرُفُها الأَصدقاءُ عندَ الوَداع. ولا أَعرِفُ إنْ كانَ في ذلكَ ما هو صِبيانيٌّ، أَو يَحملُ أَثرَ تَملُّق، أو سَذاجَةٍ وتَصَنُّع. في جميعِ الأَحوالِ أَعرِفُ بِالتَّأكيدَ أَنْ لَيسَ فيه شَيءٌ مِنَ التَصَنُّع، بلْ هو حَقيقيٌّ بِالمُطلَق، ونابِعٌ من استِعدادٍ ونيَّةٍ طاهِرةٍ وصادقة.

ع- أَمَلٌ بِالعَودَة

٢٠٤- وأَنتَ أَيُّها المُعلِّمُ المَحبوبُ، أَطلِقنا بَعدَ وقوفِكَ ومَنحِكَ إيَّانا البَرَكة، أَنتَ الذي صُنتَنا بِتَعاليمِكَ المُقَدَّسة عندما كُنَّا بِقُربِك. فاستَمِرَّ بعدَ ابتِعادِنا أَيضاً، على حمايَتِنا بِصلواتِكَ.

٢٠٥- استَودِعنا بينَ يَديِّ اللهِ الذي قادَنا إليكَ، وأَوصِه بِنا، وضَعنا خاصَّةً بينَ يَديه، واشكُره على الخَيراتِ التي أَغدَقَها علينا في المَاضي، تَضرَّع إليه كي يَرضى ويُرافِقَنا في المُستَقبل خُطوةً خُطوة، وأَنْ يَسهَرَ علينا بدونِ تَوَقُّف، وأَنْ يُلهِمَ عُقولَنا بوصاياه، وأَنْ يَسكُبَ فينا خوفَه المُقَدَّس الذي سَيكونُ أَفضَلَ مُعلِّم. لأَنَّنا مَتى ابتَعدنا عن هُنا، لَنْ نَتَمَكَّنَ مِنَ الإصغاءِ إلى كَلِمَةِ الربِّ بِتِلكَ الحُريَّةِ التي كُنَّا نَتمتَّعُ بِها عندَكَ.

٢٠٦- تَوَسَّل إليه لِيَمنَحَنا بَعضَ التَّعزيَةِ في خُروجِنا من عِندِك، وأَنْ يُرسِلَ لنا ملاكاً مُرشِداً أَميناً يُرافِقُنا في السَّفَر[٨٣].

٢٠٧- واسْأله أَنْ يُعيدَنا إليكَ ويَقودَنا تُجاهَك: أَمَلٌ كَهذا يَستَطيعُ وَحَده أَنْ يُعَزِّينا.

---

[٨٣] راجِع طوبيَّا ٥: ٢٢.

رِسالَةُ أوريجنوس إلى غريغوريوس العَجائِبيّ

افْرَح بالربِّ يا سَيِّدي المُعلِّمَ الغَيورَ وابنَ أوريجينوس المُحتَرَم غريغوريوس.

١- كَما تَعلَمُ، إذا اقتَرَنَ ذَكاءُ أَحَدِهم بالتَّمرين، فهو يَنجحُ ولو بالأَتعاب، وبحَسَبِ المُستطاع، على تحقيقِ الهَدَفِ النِّهائي لِنشاطاتِه التي طالما مارَسَها. فالمَوهِبَةُ الطَبيعيَّةُ تَستَطيعُ أَنْ تَجعَلَ مِنكَ رَجُلَ قانونٍ كامِلٍ، وفيلسوفاً يونانيّاً لأَشهرِ المَدارس. إلاَّ أَنَّ رَغبَتي قدْ كانتْ في أَنْ تَستَعمِلَ قُدُراتِ ذكاءك، وتَكونُ المَسيحيَّةُ سَبيلَك الوحيد. كنتُ أَتَمَنَّى لكَ منْ أَجلِ تَحقيقِ هذا الهَدَف أَنْ تَعرُفَ مِنَ الفَلسَفَةِ الهلّينيَّة التَّعاليمَ القادِرَة على إعطائِك ثقافَةً أساسيَّة، وتَنشِئَةً تَمهيدِيَّةً لِلمَسيحيَّة، وأَنْ تَستَقي مِنَ الرِّياضيَّاتِ وعِلمِ الفَلَك، التَّعاليم المُفيدَةَ لِشرحِكَ النُّصوصَ المُقَدَّسة. وكانَ كُلُّ ذلِك، بِهَدفِ أَنْ يُصبِحَ جميعُ ما يُؤكِّده تلاميذُ الفلاسِفة بخصوصِ علومِ الرِّياضيَّاتِ والموسيقى والقَواعِدِ والبَلاغَة والفَلَك، وكُلِّ العُلومِ المُساعِدة لِلفلسَفة، قابِلاً لِلتَّطبيقِ على العَقيدة المسيحيَّة.

٢- وإذا لا أُخطِئُ، فَفي سِفرِ الخُروج، تَعبيرٌ مُشابه على لِسانِ اللهِ نَفسه. إذ يَقولُ لبني إسرائيل[٨٤] أَنْ يَطلبوا مِن جيرانِهم ورِفاقِهم في الخيامِ، أَشياءَ مِنْ فِضَّةٍ وذَهَبٍ وثِياب[٨٥]، لِكي، إذا ما سَلَبوا المَصريِّين[٨٦]، يَستَفيدوا مِنها في تَرتيبِ العِبادَةِ الإلَهيَّة. وهكذا، فَمِمَّا سَلَبَه بنو إسرائيلَ مِنَ المَصريين، صُنِعتْ جميعُ أَدواتِ قُدسِ الأَقداس[٨٧]، التَّابوتُ وغطاؤُه، والشَّاروبيم والمُستَعطِف، وإناءُ الذَّهبِ الذي كانَ فيه المَنّ[٨٨] خُبزُ المَلائِكة[٨٩] والأَثاث. فالمَقصودُ أَنَّها صُنِعتْ مِنْ ذَهبِ المَصريين الخالِص. أَمَّا مِنَ الذَّهبِ الأَدنى نَوعيَّة، فقدْ صُنِعَ الشَّمعدانُ الكَبيرُ الصَّلبُ المُشَعَّب بالقُربِ مِنَ الحِجابِ الدَّاخليّ، والمَصابيحُ التي تَعلوه، والطَّاوِلةُ المُذَهَّبَةُ التي يُوضَعُ

---

[٨٤] على لِسانِ موسى.

[٨٥] راجع خروج ١١: ٢؛ ١٢: ٣٥.

[٨٦] راجع خروج ١٢: ٣٦.

[٨٧] راجع خروج ٢٥: ١٠-٢٨؛ ٣٧: ١-٤٠.

[٨٨] راجع خروج ١٦: ٣٣.

[٨٩] راجع مزمور ٧٧: ٢٤-٢٥ و يوحنّا ٦: ٣١ و أعمالُ الرُّسل ٢: ١٧.

عليها خبز التقدمة، وبين المائدة والشمعدان كان هيكل الذبيحة وهو أيضا من الذهب. ومن المعدن ذاته ولكن من درجة ثالثة ورابعة، صنعت الأواني المقدسة، وأشياء أخرى صنعت من الفضة. لقد كان بنو إسرائيل مقيمين في مصر[٩٠]، وقد ربحوا من جراء إقامتهم فيها، الكثير من المواد الثمينة لصناعة الأدوات الملائمة لعبادة الله. وصنع بعمل الإبرة، من ملابس المصريين ما كان ضروريا كما يعبر الكتاب المقدس[٩١]، أي أن الخياطين، وبإلهام الله[٩٢]، كانوا يحيكون الأقمشة بعضها مع البعض، ليصنعوا منها الستائر والأغطية وبسط قدس الأقداس الداخلية والخارجية.

٣- ولكن ما الفائدة من طرحي غير المناسب هذا، الذي أحاول فيه إظهار المكاسب التي حصل عليها بنو إسرائيل من أغراض المصريين، ومن أي معدن عرفوا أن يستفيدوا، بفضل الحكمة التي ألهمهم إياها الله ليبلغوا إلى عبادة الرب؟ لا يجهل الكتاب المقدس الأضرار التي لحقت ببعض الذين هاجروا من أرض بني إسرائيل إلى مصر: ويفهمنا بين سطوره مصيبة العيش بين المصريين، أي العيش بين العلوم الدنيوية، بعد الارتفاع إلى سمو شريعة الرب وعبادته التي مارسها العبرانيون. على سبيل المثال، لقد عاش هدد الأدومي[٩٣] طيلة حياته بدون أن يتذوق خبز المصريين، ولم يصنع أصناما. لكن عندما هرب مبتعدا إلى مصر من وجه سليمان الحكيم، أبغض الحكمة الإلهية، وصاهر فرعون متزوجا أخت امرأته، ومنجبا منها ابنا قد تربى بين أولاد فرعون. وإن كان قد عاد فيما بعد إلى أرض إسرائيل، فلكي يخلق شقاقا بين شعب الله، ولكي يجعل بني إسرائيل يقولون عن العجل الذهبي: "*هذه آلهتك يا إسرائيل، التي أصعدتك من أرض مصر*"[٩٤]. وأنا إذ قد علمتني الخبرة، أستطيع أن أقول لك: نادرون هم الرجال الذين أخذوا من مصر ما هو مفيد،

---

[٩٠] راجع خروج ١٢: ٤٠. بقي اليهود في مصر في المنفى حوالي ٤٣٠ سنة.

[٩١] راجع خروج ٢٦: ٣٦ و ٢٧: ١٦.

[٩٢] راجع خروج ٢٨: ٣؛ ٣١: ٣.

[٩٣] يخطأ هنا أوريجينوس بين هدد الأرومي وهو أحد أعداء الملك سليمان (الملوك الأول ١١: ١٤) ويربعام بن نباط الأفرائيمي (الملوك الأول ١١: ٢٦).

[٩٤] خروج ٣٢: ٤.

وصَنَعوا مِنه بَعدَ خُروجِهم أَثاثاتٍ لا بُدَّ مِنها لِلعِبادَة. إلاَّ أنَّ الكَثيرينَ كانوا إخوةَ هَدَد. هَؤلاءِ قدْ استفادوا مِن تَلَقُّنٍ بَعضِ العُلومِ اليونانيَّة، لِيَصنعوا الأَفكارَ المُهرطِقة، وصَنعوا، (لِنقل)، عُجولاً منْ ذَهَبٍ لِبيت إيل[٩٥]، هذه الكَلِمة التي تَعني بيتَ الله[٩٦]. يَبدو لي، أنَّ الكَلِمَةَ الإلَهيَّ يُريدُ أَنْ يَعني بذلك، أنَّهم أَضافوا اختِراعاتِهم الخَاصَّة على الكِتاب الذي تَسكنُ فيه كَلِمةُ الله، وقدْ قيلَ عَنها رَمزيَّاً "بيت إيل". وبحَسبِ الكَلِمة، لقدْ صَنَعوا صَنَماً آخر ونَصبوه في دَان[٩٧]، المدينةِ الواقِعَةِ على الحُدود، كما نَستَنتِجُ مِمَّا هو مكتوبٌ في سِفرِ يشوع بن نون[٩٨]. إلاَّ أنَّ بَعضَ الاختِراعاتِ التي هَندَسها إخوةُ هَدَد، تَقتَربُ كَثيراً مِنَ الهرطقاتِ الوَثنيَّة.

٤- أنتَ إذاً، يا سيّدي وابني، اجتَهِد بِعنايَةٍ كُلِّيَّة، وفوقَ كُلِّ شيءٍ في قِراءَةِ الكِتابِ المُقدَّس. فَمِنَ الضَّروريِّ لنا نحنُ الذين نَقرأُ الكُتُبَ الإلَهيَّة، أَنْ نَحرَصَ بِشِدَّةٍ أَلاَّ نُعَبِّرَ بتَهوُّر، أو نَأتيَ بأَفكارٍ طائِشَة حيالَها. وفي تَكرُّسِكَ على قِراءة النُّصوصِ المُقَدَّسَة بإيمانٍ وخَيرِ استِعداد يُرضي الربّ، اقرَع على الكَلِماتِ المُغلَقَة، فَيَفتَحُ لَكَ البَوَّابُ الذي، قالَ عنه يسوع المسيح: *"لَهم يَفتَحُ البَوَّاب"*[٩٩]. وأيضاً ابحَثْ باستِقامَةٍ وإيمانٍ في الربِّ عنْ مَعنى الكِتاباتِ السَّماويَّةِ المَخفيَّةِ عنْ الأَكثريَّة. لَكن إيَّاكَ التَّوَقُّف عنِ القَرعِ والبَحث. ولِكي تَفهَمَ الأُمورَ المُقَدَّسَة لا غِنى عنِ الصَّلاة، ففي نَصحِه لنا، لِمْ يَكتَفِ المُخلِّصُ بالقَول: *"اطلبوا تَجِدوا، اقرَعوا يُفتَحُ لكم"*[١٠٠] بل أَمرَ أيضاً: *"اسأَلوا فَتُعطَوا"*[١٠١].

تَجاسَرتُ كَثيراً بِسَبَبِ عاطِفَتي الأُبويَّة تُجاهَك. يَعلَمُ الله وابنُه المسيح، وأَيُّ مُشتَرِكٍ بِروحِ اللهِ وروحِ المسيح، إذا كانتْ جُرأتي مُبَرَّرَةً أو لا. بإمكانِكَ أيضاً أَنْ تَكونَ شَريكاً دائِماً

---

[٩٥] أَقدَمُ مُدُنِ الكنعانيين (راجع تكوين ٢٨: ١٩). أمّ إيل فهو رَئيسُ الآلِهةِ في مَعبَدِ أُوغاريت، واعتبَرَه الكنعانيّون أبا جَميعِ الآلِهة والبَشر وخالِقِ كُلِّ شيء، ورمزُه الثّور.

[٩٦] راجع تكوين ٢٨: ١٧-٢٢.

[٩٧] مدينةٌ على أَقصى حدود فِلسطين حول ينابيعِ نَهرِ الأُردُن.

[٩٨] راجع يشوع بن نون ١٩: ٤٧.

[٩٩] يوحنّا ١٠: ٣.

[١٠٠] متّى ٧: ٧ ولوقا ١١: ٩.

[١٠١] متّى ٧: ٧ ولوقا ١١: ٩.

أكثر، كي يُسمحَ لكَ أنْ تَقولَ ليسَ فقط: "*أصبحنا شُركاءَ المسيح*[١٠٢]"، بـــل أيضـاً "*أصبَحنا شُركاءَ الله*".

[١٠٢] رسالةُ القدِّيسِ بولس إلى العبرانيين ٣: ١٤.

فهرس

منهجيَّة التَّرجمة..... I

مُقدِّمَة: حياةُ القدِّيس غريغوريوس العجائبيّ..... أ

أهمُّ المراجعِ لِمعرفةِ سيرَته..... ح

بعضُ الدِّراسات حولَ غريغوريوس وكتاباتِه..... خ

اللُّغات التي تُرجِمَ إليها وصدرَ بها..... د

النُّصوص التي اعتَمَدنا عليها في تَرجَمَتِنا..... ذ

مُؤلَّفاتُ غريغوريوس العَجائِبيّ..... ر

خِطابُ غريغوريوس..... ش

رسالةُ أوريجينوس إلى غريغوريوس..... ط

خِلافٌ بينَ دارِسي خِطابِ غريغوريوس..... ظ

خِطابٌ إلى المُعلِّمِ أوريجينوس

أ. رهبةُ الكلام..... ١

ب. عرفانُ الجَّميلِ لله بِسببِ اللِّقاءِ معَ أوريجينوس..... ٢

ت. شَرفُ المُحسنين..... ٤

ث. المَلاكُ المُعلِّم..... ٧

ج. في قيصريَّةِ فِلسطين وليسَ في البيريتو..... ٨

ح. السِّحرُ غَيرُ الزَّائِلِ لِكلِمةِ أوريجينوس..... ١٣

خ. يَجبُ عدم التَّوقُّفِ عندَ ظَّواهِرِ الأشياءِ بل يَجبُ البَحثَ في جَواهِرِها..... ١٦

د. يُسَهِّلُ الوصولُ إلى السَّماء..... ١٩

ذ. الفَضائِلُ الأخلاقيَّةُ الإلَهيَّة..... ٢٠

ر. مَديحٌ يَعكُسُ حَقيقَة..... ٢٢

ز. الفِطنَةُ البَشَريَّةُ والفِطنَةُ الإلَهيَّة..... ٢٣

س. بِرِفقَةِ كُلِّ فَضيلَة وحِكمة..... ٢٥
ش. يَفتَقِدُ المُلحِدونَ لِحُسنِ الإدراكِ البَشَريّ..... ٢٥
ص. مَعرِفَةُ اللهِ والرَّحمةُ الإلَهيَّة..... ٢٧
ض. أوريجينوس مُفسِّرُ تَعاليمِ الربّ..... ٢٩
ط. الانطِلاقُ والمُستَقبَل..... ٣١
ظ. تَعتَني بِنا الأُلوهَة..... ٣٤
ع. دُموعُ انطِلاقِ الأَصدِقاء..... ٣٥
غ. أَملٌ بِالعَودَة..... ٣٥

رِسالَةُ أوريجينوس إلى غريغوريوس العَجائِبيّ..... ٣٦

فَهرَس..... ٤٠

مطبعة النور

جبان أبو ضاهر

تلفون: ٠١/٢٨٦٩٨٩ - ٠٣/٥٣٥٢١١

مشورات النور